الباب السادس

فى الأدب العربى فى القرن التاسع عشر

فى رأيى أن كل أدب كغدير الماء ، إذا لم تمدّه من حين لآخر بماء جديد تعفن وأنتن ، وكالأسرة الكبيرة إذا ظل أفرادها يتزاوجون فيما بينهم هزلوا وذبلوا وشاعت فيهم الأمراض ما لم يتزاوجوا من غيرهم ، وله عمر كعمر الفرد : صبا ، فشباب فكهولة ، فشيخوخة ، ولكنه يمثل الدور ثانية فى بنيه ولا يكون ذلك إلا بالتزاوج .

هذا فى نظرى تاريخ كل أدب : شرقى أو غربى . فإن نحن نظرنا إلى الأدب العربى وجدنا أن الأدب الجاهلى وامتداده فى العصر الإسلامى بدأ يركد ، حتى امتزجت الأمة العربية بغيرها من الفرس والروم والهند وغيرهم ، وامتزجت الثقافة العربية بالثقافة الفارسية وبالثقافة الهندية وبالثقافة اليونانية ، فبدأ الأدب العربى يحيا حياة جديدة ظهر أثرها فى مثل الجاحظ وتأليفه فى العصر الإسلامى .

وقد يبدو غريبا أن أقول إن الأدب العربى قد ركد قبيل هذا الامتزاج مع ما عرف عنه من جزالة اللفظ وجودة السبك وفصاحة اللسان ، ولكن مظهر الركود فى نظرى كان قلة المعانى الجديدة ، وتكرار المعانى القديمة ، واقتصار الأدب على الأقوال المأثورة ، فى الموضوعات الموروثة ، حتى طلع الجاحظ وأمثاله بموضوعات جديدة ومعان جديدة وأساليب جديدة ، فكان هذا هو التجديد الذى أتى به الامتزاج الجديد ، ونشأ عنه العودة إلى الشباب بعد الشيخوخة .

ثم صار هذا الجديد قديما ، وركد ماء الغدير لما انقطع المدد وأصبح الشباب هرما . ذلك أن الشرق بعد الحروب الصليبية أغلق على نفسه وضعف اتصاله بالغرب ولم يكد يعلم شيئا مما يجرى فى أوربا — نعم كان هناك قناصل للدول وتجار أجانب ولكن هؤلاء كانوا يعيشون فى شبه عزلة ، ولا تشعر الشعوب الشرقية بهم وخاصة من الناحية الثقافية ، ولما بدأ

الغرب فى القرن الخامس عشر والسادس عشر يضع أساس نهضته فى العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك مما غير وجه حياته تغييرا تاما لم يصل إلى الشرق شىء منها ولم يشعر بها ، واستمرّ فى دائرته المغلقة يقلد حياة الشرق الأولى من غير روح ، ويعيش على الثقافة القديمة بعد أن صارت تماثيل .

فى الغرب كان بدء النهضة والثورة على القديم ، وبناء أسس جديدة لحياة جديدة ، وتحكيم العقل فيما يعرض من مشاكل ، وتحرير العواطف من كثير من القيود ، ووضع كل قضية موضع البحث والتجربة . وفى الشرق كان الجمود وظلم الحكام مع الاستكانة من الشعب ، وترف الأمراء مع فقر الشعب — كان الشرق والغرب يسيران متحاذيين ولكن اختلف فيما بعد اتجاههما ، فسار الغرب إلى الأمام وسار الشرق إلى الوراء ، وتنبه الغرب فطالب حكامه الظالمين بتحقيق العدل ، واستنام الشرق على الظلم راميا عبئه على القدر .

وأصاب الأدب من ذلك ما أصاب سائر مناحى الحياة ، فقد كان من أكبر أسباب النهضة لأدبية الأوروبية التفاتهم إلى وجوب الاستمتاع بالحياة الدنيا ونعيمها ، بعد أن كان المثل الأعلى هو الزهد والانقطاع للحياة الأخرى ، وعلى هذا الاتجاه سار الأدب يقوّم الحياة الدنيا ونعيمها تقويما كبيرا فى القصص وسائر أنواع الأدب — ثم من المظاهر الجديدة التى كانت عندهم فى الأدب ثورتهم على الفوارق بين الطبقات فبعد أن كانت الروايات إنما تتعرض لوصف الحياة الأرستقراطية فإذا عرضت لحياة الطبقة الوسطى أو الدنيا فلإضحاك الطبقة العليا ثار الأدباء على هذه الأوضاع وصار كوخ الفلاح موضوعا للأدب كبلاط الملوك ، واستمدّت المآسى والملاهى موضوعاتها من الحياة المألوفة عند أوساط الناس وفقرائهم .

ومظهر آخر فى الأدب الغربى هو استنزال الأدب إلى عالم الواقع ، فالقطعة الأدبية صارت تقوّم بمحصولها الفكرى لا بجمالها الفنى وحده ، وعدّ من الأدب الرسائل السياسية والمقالات الاجتماعية .

وفى الشرق كان الأدب حائرا بين الزلفى إلى الأغنياء والكبراء فى المديح أو الترفع عن ذلك إلى الانصراف للحياة الأخرى بإنتاج الأدب الدينى فى المدائح النبوية وغيرها ،

أما الأدب الدنيوى الذى يصوّر حياة الشعوب ويعرض للمسائل الاجتماعية والسياسية ويفتح آفاقا جديدة فلم يكن إلا فى القليل النادر — ولذلك أنتجت النهضة الأوروبية أدب شكسبير وراسين وجوته وأمثالهم فى حين أنتجت الحياة الشرقية أدبا يعنى بأنواع البديع كان حجة الحموى أو أدبا يعنى بمدح الأمراء كالأرتقيات لصفى الدين الحلى ، أو أدبا يعنى بالناحية الدينية كالهمزية والبردة للبوصيرى . أما الأدب الذى يمثل الشعب فى بؤسه والحكام فى ظلمهم أو الذى ينفخ فى الأمة روح الثورة على الظالمين ، أو الأدب الذى يدعو إلى أن يتبوأ الشعب مكانته فقلما نظفر به إذا استثنينا ابن خلدون ، وقليلا من أمثاله .

ومع هذا كله كانت مصر بعد سقوط بغداد فى يد التتار أقوى الضعفاء أو أصحى السكارى .

* * *

وقد صوّرنا الأدب العربى إلى آخر القرن الثامن عشر راكداً فى شعره ونثره ، وسائر فنونه ، وكان أهمّ سبب فى هذا الضعف هو ضعف الحياة الاجتماعية لأن الأدب مرتبط أشد الارتباط بالحياة فإذا ساءت الحياة الاقتصادية ، والسياسية ، ولم ينعم بالحياة إلاّ الأغنياء ، وغرق الشعب كله فى البؤس ، وعومل معاملة الأنعام كسد الأدب وأصبح طرفة من الطرف التى تُقدّم للملوك والأمراء ، كالجوهرة الكريمة أو القطعة من الصناعة الفنية فإذا دبّت الحياة فى الأمة ، وشعرت بنفسها ، وقوّمت العدلَ والحرية تقويماً صالحاً ، واستاءت من الظلم ، ورفعت صوتها لمحاربته ، وطالبت بتحقيق العدل ، وقومت مشاعرها فى الحبّ والكره ، والعدل والظلم ، وقدّرت تقديراً صحيحاً موقف الحاكم من المحكوم والمحكوم من الحاكم ، حيى الأدب ، وتجدد فى موضوعاته وأساليبه .

وهكذا كان تاريخ الأدب فى كل عصر : تخمد الحياة الاجتماعية فيخمد ، وتحيا فيحيا.

نعم قد تركد الحياة الاجتماعية ولكن ترزق الأمة بأديب كبير ، أو فيلسوف كبير ، يشعر بما لا يشعر به قومه ، ويتجه اتجاهاً صحيحاً حيث يتجه سائر شعبه اتجاها خطأ ، فيرفع صوته بالدعوة الصحيحة ، وبإيقاظ الشعور القومى ، وينادى بالتوجيه جهةً غير التى يتجه إليها شعبه ، ويتعرض فى دعوته هذه إلى الاضطهاد والتسفيه بل والقتل أحياناً ، ولكن تحيا فكرته ودعوته ، ويتسلمها خلفٌ له يزيدها اشتعالاً حتى يعم الشعب ، ويحولا اتجاهه

من اتجاه فاسد إلى اتجاه صحيح — ومع الأسف لم يوجد مثلُ هؤلاء الأفراد الأفذاذ فى الشرق فى العصور الأخيرة التى أرّخنا لها من قبل ، وإن وجدوا فصوتُ أفراد لم يخلّفوا مدارس ، وأخمدت أنفاسهم وحركاتهم فى أسرع وقت ممكن ، أو ضاعت دعوتهم فى تقاليد الشعب وحالته السيئة التى كان عليها .

ولعل سبب ذلك أن الشرق قد توالى عليه من المظالم ما أفقد الشعب روحه ، وأنّ الحياة فى الشرق ورفْق الجوّ الطبيعى وتلطيف العاطفة الدينية لهذه المساوئ بكثرة الأوقاف والإحسان وما إلى ذلك جعل الحصول على القوت الضرورى فى الشرق أيسر تناولاً مما هو فى الغرب فكان إذا ارتفعت الدعوة باستثارة الشعور بالظلم على يد أحد المصلحين فى الغرب وجدت لها استجابة من الشعب أكثر مما تجد لها فى الشرق .

ثم إن الشرق قد توالت عليه محن خارجية من قديم أكثر مما أصاب الغرب فقد ظلّ أمداً طويلاً منكوباً بالغزو الاستعمارى مما حرم الأمم عِزة استقلالها ، وطمأنينة استقرارها ؛ فالظلم الواقع على الشعوب الشرقية لم يكن من حكامها الذين هم منها فقط ، بل أسوأ من ذلك ما كان من خارجها ، ولم يُصب الغرب بمثل هذه المصيبة الطويلة . والاستقلال فى السياسة يولد الاستقلالَ فى الفكر ، والاستقلالَ فى الأدب ، وتكوين الشخصيات فى سائر أنواع العلوم والفنون . وفقدانُ الاستقلال السياسى كفيلٌ بضياع أنواع الاستقلال المختلفة علمية كانت أو فنية أو أدبية .

* * *

وعلى كل فقد ظلت الحياة الأدبية على نحو ما وصفنا إلى أن كانت النهضة الحديثة للشرق قبيل مستهل القرن التاسع عشر .

وترجع أسباب النهضة إلى عوامل مختلفة أهمها :

احتكاك الشرق بالغرب

فالغرب لما قوى سياسيا وفنياً وحربياً اتجه إلى احتلال الشرق واستعماره واستغلاله ، وساعد على طمعه فى هذا سوء حال المملكة العثمانية وقد كان الشرق جاهلاً كلّ الجهل بما

يجرى فى الغرب من أساليب سياسية فى الحكم وأساليب حربية فى الحرب ، وعلم وأدب وفنّ فى الحياة الفكرية على حين كان الغرب عالماً بكل ما فى الشرق علماً واسعاً بما يبثّ من عيون يدوّن أممهم بتفاصيل ما يجرى فى الشرق ، ويؤلفون الكتب فى آثاره ، وعاداته وتقاليده ، ويضمون التقارير فى قوانه الحربيــة على حين لا يذهب من الشرق إلى الغرب إلاّ القليل النادر ولمناسبات قوية كسفر إبراهيم بك الكبير أخذه الإنجليز ليقيم فى بلادهم فيؤمن بعظمتهم ، ثم يتخذونه عوناً لهم بمصر فى سياستهم ، فأقام فى انكلترا نحواً من خمس سنوات ، ولكن لم يكن لهذه الحادثة وأمثالها من أثر علمى أو أدبى أو فنّى . فلم يشعر الشرق إذن بقوة الغرب ولم يستفد منها إلاّ بعد أن فاجأه بالغزو .

شعرت مصر بذلك حين دهمتها الحملة الفرنسية إذ أقبل نابليون سنة ١٧٩٨ يفتح الإسكندرية ، وينتقل منها إلى فتح غيرها من البلاد المصرية فى سهولة ويسر ؛ ولم يكن حكم الفرنسيين لمصر حكماً صالحاً يبعث فيها النهضة إلاّ ما كان عن طريق غير مباشر من اتصال المصريين بهم ووقوفهم على بعض نواحى تقدمهم واطلاعهم على مخترعاتهم وعلى نتائج بحوث علمائهم .

ولما جاء محمد على قوّى هــذا الاتصال بين الشرق والغرب ؛ فقد اتخذ إخصائيين من الأوربيين فى نواحى الحياة المختلفة وكان الشعب أكثر إقبالا على الاستفادة منهم ، لأن الغرب ، وخصوصاً الفرنسيين ، لم يكونوا حينئذ حكاما مكروهين كما كانوا فى أيام حملتهم ، بل كانوا موظفين مجلوبين لحكومة مصرية وشعب مصرى ، فاستعان بهم محمد على فى تنظيم الجيش ، وفى إنشاء المدارس ، وفى أساليب الحكم إلى غير ذلك من نواحى الحياة .

وقد كانت مهمة محمد على أولاً تقوية الجيش وتنظيمه ولكنّ هــذا الجيش تطلّب مطالب فى نواحى الحياة الأخرى ، فلا بدّ للجيش مثلاً من أطباء فافتتح مدرسة الطب وأشرف عليها علماء من الفرنسيين ، غير أن هذا التعليم الطبى باللغة الأجنبية استلزم معرّبين يعرّبون للطلبة مالا يفهمونه من الأساتذة الفرنسيين فكان بدء حركة الترجمة وبدء وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية .

ووجد محمد على أن نقل الأساتذة من فرنسا وغيرها إلى مصر لا يُغنى الغناء المطلوب ، فبدأ يبعث البعوث من المصريين إلى أوربا .

وأول ما كان ذلك فى سنة (١٨١٣) ، ثم ظلّ يوالى البعوث بعد ذلك حتى سنة (١٨٢٦) حيث كان عدد البعثات أكثر من أربعين طالباً — هؤلاء الطلبة رأوا أوربا على حقيقتها ، ولم يقتصروا فى تزودهم على العلوم والفنون والآداب ، بل أضافوا إلى ذلك ما قد يكون أبعد أثراً وهو دراستهم للحياة الاجتماعية فيها ، وتأثرهم بها ، فعرفوا أساليب معيشة القوم ، وأدركوا أسباب نهوضهم ، ورأوا ما يستمتعون به من حرية ، وكيف يتعلم النساء والرجال منهم على السواء ، وكيف يرقون بالشعوب فى الحياة المادية والمعنوية ، إلى غير ذلك مما رأوا وعرفوا فلما عادوا إلى مصر عادوا يحملون مشاعل من نور .

وتجلّى ذلك فى إقبالهم على الترجمة والتأليف والدعوة إلى الإصلاح وإن كانت دعوة هادئة ليّنة ، وفى كثير من الأحيان متسترة ، كالذى نقرؤه فى ثنايا مؤلفات رفاعة الطهطاوى من تحبيذ تعليم النساء ، وإنشاء المدارس لهنّ ، والعناية بثقافة الشعوب وصحتها ، ورفع مستواها الاجتماعى .

كلّ هذا رفع من مستوى الثقافة وكلّ هذا كان له أثره فى الأدب بوجه خاص لأنّ الأدب معان وأساليب . . فإذا تثقف نخبة من شبان الشعب ، وملأوا نفوسهم بالمعانى والأفكار والآراء ، وقطّروها إلى الشعب بأى وسيلة كانت : إمّا بالتأليف أو الترجمة أو الخطب ، أو المحادثة أو السمر ، كان ذلك كله نواة لنهضة أدبية يُرجى خيرها بعد قليل .

واستتبعت حركة استجلاب الأساتذة الأوربيين على اختلاف أنواعهم إلى مصر ، وإيفاد البعوث المصرية إلى أوربا ثم عودتهم منها ، حركة قوية فى التأليف والترجمة فقد رأينا أثر ذلك واضحاً فى كثرة ما تُرجم وما أُلف ، وبدأ ذلك بالطب لما كان من حاجة الجيش للطبّ ، ثم توالت الترجمات والتأليف فى الفنون الأخرى .

وكانت حركة التأليف والترجمة فى مستهل حياتها محوطة بمصاعب كبيرة ، من ذلك العثور على المصطلحات العربية تقابل المصطلحات الغربية وتُحسِنُ التعبير عنها ، وقد بذلوا فى ذلك جهداً مشكوراً بالرجوع إلى الكتب القديمة ككتب ابن سينا وغيره فى الطب ، يستخرجون مصطلحاتها ، وكتب الفقه القديمة يستخرجون تعبيراتها الفقهية . . . هذا إلى صعوبة فى

تطويع الأسلوب العربى السائد إذ ذاك إلى أسلوب مُيسَّر سهل خالٍ من السجع وغيره ليتفق وما يتطلبه العلم من أسلوب صاف واضح .

والذى يقرأ هذه الكتب يحسُّ هذه الصعوبة ، ويلمس هذا الجهد الذى لقيه المؤلفون والمترجمون ، وما صادفوا من تعثر أحيانا وتغلُّب على الصعاب أحيانا أخرى ، ولكن هذه الحركة كانت على كل هذا ، بدءاً لنوع من الثقافة جديد يعدُّ بحقٍّ دعامة النهضة ، ويوشك أن يكون له أثره فى الثمرة المرتقبة .

* * *

وهذا الاحتكاك سواء من طريق استيفاد الأساتذة الأوربيين إلى مصر أو من طريق بعث البعوث المصرية إلى أوربا كان له أثره الخطير الذى ظل يعمل عمله فى حياة الشرق إلى الآن ، فقد كان هؤلاء وهؤلاء نقلة للمدنية الغربية فى منهج بحثها وتعاليمها وطريقة حياتها وأسس حضارتها .

عُرض ذلك على المصريين عرضا قويا وبخاصة الخاصة منهم فالأساتذة الأوربيون يدرسون على منهاجهم الذى تعلموه فى أوربا ويعيشون فى مصر العيشة الاجتماعية التى كانوا يعيشونها فى أوربا وينقلون نظم الإدارة والتعليم والصناعة التى شهدوها فى بلادهم ويتحدثون الأحاديث المختلفة عن الحضارة الأوربية وكذلك يفعل أعضاء البعثة من المصريين الذين سافروا ودرسوا ثم رجعوا . وأثر هؤلاء أقوى لأنهم من صميم البلاد وأقدر على عرض ما شاهدوا وتأثروا .

كل هذا جعل فى جو مصر نوعا جديدا من الحياة ومن التفكير لم يكن معروفا ، وبجانب ذلك كان هناك طبقة أخرى من مثقفى الأزهر والمعاهد الدينية الأخرى يحيون حياة قديمة وعلى نمطهم القديم وعلى تفكيرهم المألوف وقلما يصل إليهم شىء من الثقافة الغربية ، فكان هناك احتكاك آخر من جنس آخر هو احتكاك بين العقلية القديمة والعقلية الحديثة والعلم القديم والعلم الحديث والأدب القديم والأدب الحديث والفنون والصناعات القديمة والفنون والصناعات الحديثة ، وبعبارة أخرى كان هناك احتكاك فى الأمة الواحدة بين طائفتين ومدنيتين وعقليتين كالاحتكاك الذى وصفناه بين الشرق والغرب . وأثر ذلك فيما

نحن بصدده الآن من وجود أساس لمدنيتين وعقليتين ظلتا تعملان جنبا إلى جنب وتؤثر كل منهما فى الأخرى أثراً يضعف ويقوى بالأحداث إلى يومنا هذا .

***

ثم حدث احتكاك من نوع آخر ، فقد كان الاحتكاك السابق سلميا هادئا أيام محمد على ومن بعده ، يستعين فيه الشرق بالغرب متى شاء وكيف شاء ، وكانت الاستفادة بالتعلم والتعليم والترجمة والاقتباس والتقليد — ولكن جاء بعد ذلك فتح قناة السويس والتنازع عليها والاستفادة منها واختلاف أطماع الدول فى استغلالها وتسابق الإنكليز والفرنسيين إلى بسط نفوذهما عليها وأعقب ذلك تدخلهم فى شئون البلاد ، فكان من هذا بدء شعور المصريين بالخوف من سوء المصير وغليان البلاد ، ودَعْوة القادة إلى الحذر واليقظة حتى لا تقع البلاد فريسة فى يد الأجانب .

وكان على رأس هذه الدعوة السيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه — ثم كان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أن وقعت الواقعة باحتلال الإنكليز لمصر فكان احتكاكا من نوع آخر : بسطوا سلطانهم ووجهوا أساليب التعليم ومناهجه والحياة الاقتصادية والسياسية وفقا لمنفعتهم هم .

وقد كان ذلك احتكاكاً مكروها ، على عكس الاحتكاك الأول ، ومع هذا فقد أثر فى استمرار نقل المدنية الغربية إلى مصر وتعليم كثير من أبناء البلاد اللغة الإنكليزية يطلعون بها على العلوم والآداب والفنون الإنكليزية وإرسال بعثات إلى انكلترا للدراسة فيها .

ونشأ عن ذلك كراهة المصريين للحكم الأجنبى وشعورهم بعزتهم التى امتهنت وقوتهم التى ضاعت ، وفقدان كرامتهم بفقدان استقلالهم واطلاع كثير ممن تثقفوا الثقافة الأجنبية حتى الإنجليزية على ما بذل الأوربيون فى المحافظة على استقلالهم وشعورهم بوطنيتهم ، فأوحى إليهم ذلك أن يحاربوا الاحتلال ، ويطالبوا الاستقلال ، ويسلكوا فى ذلك السبل التى سلكها الأوربيون أنفسهم فنشأ فى البلاد نوع من الأدب السياسى تجلّى فى الصحف وفى الشعر وفى الخطابة مثّله أولا جمال الدين الأفغانى ثم عبد الله نديم ثم مصطفى كامل — وشعر به أولا البارودى ثم صبرى وشوقى وحافظ .

وهكذا كان للاحتكاك بنوعيه أثر بليغ واضح فى الأدب على اختلاف أشكاله.

وكان من أثر هذا الاحتكاك .

(١) الطباعة والصحافة .

أما الطباعة فمع أنها اخترعت فى القرن الخامس عشر الميلادى وعرفتها الأستانة فى منتصف القرن السادس عشر ، فإن مصر لم تعرفها إلا على يد الحملة الفرنسية ولم تستفد منها فائدة تذكر إلا سنة ١٨٢١ حيث أنشأ محمد على المطبعة الأهلية التى عرفت باسم مطبعة بولاق ثم تتابع إنشاء المطابع .

وكان للطباعة أثر كبير فى نشر الثقافة ، فقد اعتاد الناس قبلها أن ينسخوا الكتب بأيديهم وهذا يجعلها نادرة ويجعل الانتفاع بها محصورا فى دائرة ضيقة ولا يستطيع اقتناءها إلا الموسرون ، فكان طلبة العلم ينسخون الكتب بأيديهم أو يستعيرونها من المكاتب على صعوبة فى ذلك فلما انتشرت الطباعة وتقدمت كثر عدد ما يطبع ورخص ثمنه وأصبح فى متناول عدد كبير من الناس .

وقد بدأت المطابع تطبع الكتب التى تخدم الجيش والإدارة الحكومية ثم توسعت فطبعت الكتب الدينية والأدبية والتاريخية وغيرها مما زاد فى نشر الثقافة ، وكان لذلك أثره فى الحركة الأدبية .

وكان لتأسيس الطباعة وتقدمها فضل فى الصحافة وتقدمها وقد أنشئت الصحافة فى مصر فى عهد محمد على أيضا بإنشاء الوقائع المصرية وكانت جريدة رسمية تنشر الأخبار الحكومية ، ثم كان لها قسم أدبى لنشر المقالات الأدبية والاجتماعية ثم تقدمت الصحافة وكثرت الصحف ونالت حقوقها من الحرية على مر الزمان تنشر فيها آراء المفكرين والسياسيين وتنصر الأحزاب المختلفة والنزعات المختلفة وتحمل الأخبار بجانب المقالات السياسية والمقالات الأدبية فكانت بذلك مصدرا من أكبر المصادر لنشر الأفكار السياسية والاجتماعية والأدبية بين طبقات الشعوب وكانت عاملا من عوامل النهضة الفكرية كما كانت سببا قيما فى رقى النثر العربى وتحريره مما كان يتعثر فيه من سجع وأنواع بديع ونحو ذلك إذ كانت الصحافة تتطلب أسلوبا سريعاً سهلاً حارا متدفقا .

وبجانب الصحافة كانت المجلات وكان أول ما أنشئ فى مصر مجلة « اليعسوب » وهى مجلة طبية أنشأها محمد على البقلى سنة ١٨٦٥ ثم تتابعت المجلات الأدبية كمجلة « روضة المدارس » التى أنشئت لطلبة المدارس سنة ١٨٧٠ وكان يحرر فيها كثير من رجال العلم والأدب ، كرفاعة بك وعلى مبارك باشا والشيخ حسين المرصفى وعبد الله باشا فكرى وغيرهم كما كانت تنشر فى آخر كل عدد صفحات من كتاب قيم .

وكانت من أهم المجلات الأدبية التى صدرت مجلة نزهة الأفكار التى أصدرها ابراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال سنة ١٨٦٩ ، وكان طابعها الظاهر عليها الطابع الأدبى البحت . وهكذا تعاونت المجلات والجرائد على تغذية الشعب بالأفكار والآراء العلمية والأدبية ، وكانت كلها مدارس يتزعمها شيوخ الأدب والعلم فى مصر و يتتلمذ فيها الناشئون الناشدون للأدب .

(٢) وتبع إنشاء المطابع وتنبه الأفكار والرغبة فى الازدياد فى العلم أن اتجه جمع من المثقفين نحو إحياء الكتب العربية القديمة فى مختلف العلوم والفنون ونهض بأعباء ذلك جماعة فى الشرق وجماعة فى الغرب . ففى الشرق نشرت المطابع المصرية كثيراً من الكتب القديمة العربية القيمة من لغوية وأدبية وتاريخية وفلسفية أمثال القاموس المحيط وتاريخ ابن خلدون والعقد الفريد وكثيراً من دواوين الشعراء وغيرها وكانت هذه الكتب مجهولة عند أكثر الناس لا يعرفها إلا الخاصة .

وفى الغرب جد المستشرقون فى نشر كثير من الكتب القيمة فنشطت حركة الاستشراق ، وهى حركة قديمة بدأت فى القرن العاشر الميلادى وتقدمت على مر العصور وبلغت ذروتها فى القرن التاسع عشر .

وكان من أهم ما قام به المستشرقون طبع الكتب العربية القديمة طبعا فنيا ، فهم يجمعون نسخ الكتاب الذى يراد طبعه من مكاتب العالم و يقابلون بعضها ببعض و يختارون أصحها و يشيرون إلى ما اختلف من نصوصها و يضبطون أعلامها و يضعون الفهارس لها وكثيرا ما يعلقون عليها أو يقدمون لها مقدمات قيمة فى تحليلها و إن كان أكثر هذه المقدمات بلغة أجنبية .

ولعل أهم من يمثل هذا الجهد فى القرن التاسع عشر البارون سلفستر دى ساسى الفرنسى المتوفى سنة ١٨٣٨ فقد بذل جهدا كبيرا فى هذا الباب إذ نشر كتاب كليلة ودمنه وألفية ابن مالك ومقامات الحريرى ووضع شرحا على هذه المقامات لا يزال متداولا فى أيدى الناس إلى اليوم ، وكان نشره لها أول نشر ، وألف كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد جمع فيه كثيرا من المنتخبات فى الأدب العربى والتاريخ ، وكون مدرسة سارت على منهجه ونشرت الكتب القيمة أمثال كترمير الفرنسى المتوفى سنة ١٨٥٧ وهو الذى نشر لأول مرة مقدمة ابن خلدون ومن تلاميذه فرايتاج الألمانى المتوفى سنة ١٨٦١ وهو الذى نشر لأول مرة أيضا كتاب الحماسة لأبى تمام مع شرح التبريزى عليه كما نشر أمثال الميدانى وفاكهة الخلفاء ورحلة البغدادى ، إلى كثير غيرهم من المستشرقين نشروا من الكتب الشىء الكثير .

وقد وصلت هذه الكتب إلى الشرق وانتفع أهله بها وأعادوا طبعها ونشرها واستفادوا منها .

كل هذا — سواء ما نشر منه فى الشرق أو ما نشره المستشرقون فى الغرب — كان له أثر بعيد المدى فى النهضة الأدبية ، فقد وجد فيه المتأدبون ينبوعا لا ينضب يستمدون منه أدبهم ويقلدونه فى أسلوبهم ، ويتكثرون منه فى علمهم وثقافتهم .

وكانت كل هذه الآثار محجوبة عن القراء إلا العدد القليل النادر ، وكانت كل هذه الكتب طرفا من أعز الطرف تحفظ فى خزائن الملوك أو فى المساجد فأصبحت بفضل المطابع وجد العلماء فى النشر سهلة المنال كثيرة الانتشار بعيدة الأثر

* * *

ثم كان لهذا الاحتكاك أثر فى إنشاء المدارس على نمط حديث تُقلِّد فيه المدارس الأوربية فى مناهج التعليم ومواد الدراسة — وقد كان التعليم فى مصر قبل محمد على محصوراً فى الأزهر ، فى القاهرة ، والكتاتيب المنبثة فيما حول القاهرة من المدن والأرياف .

فلما جاء محمد على شعر بحاجته إلى إنشاء جيش منظم على الأساليب العسكرية الحديثة وهو نفس الشعور الذى شعرت به تركيا قبل ذلك قبيل القرن الثامن عشر ، ووضعت له خططاً غرضها التنظيم ثم عاقها عن إتمامها قوة الانكشارية ومعاكستها للتجديد . ولكن

محمد على تمكن من السير فى هذه السبيل وجرى خلفاؤه على الاستمرار فيها . واستتبع تنظيم الجيش تنظيم ما يلزمه من فنون أخرى من طبّ وهندسة وغير ذلك .

وعلى كلّ حال فقد نتج عن هذه تأسيس مدارس مدنية انقسمت إلى ثلاثة أنواع : ابتدائية وتجهيزية وخاصة . وكان من المدارس الخاصة مدرسة الطب والهندسة والطب البيطرى والفنون والصناعات والزراعة والألسن ، وكان لهذه الأخيرة مدرسة الألسن فضل كبير فى نشر الثقافة الغربية فى الفنون المختلفة بما كان من جهد رفاعة بك الطهطاوى وتلاميذه .

وكان عدد المدارس الابتدائية المؤسسة على النمط الحديث نحو خمسين مدرسة ولما كثر التعليم المدنى وجد محمد على الحاجة ماسة إلى إنشاء (ديوان المدارس) يقوم بما تقوم به اليوم وزارة المعارف وقد أنشئ سنة ١٨٣٩ .

واستمر هذا النظام يسير فى عصور مَنْ بعده مع ما عاناه من الضعف والقلة فى عهد عباس الأول وسعيد ، حتى جاء اسماعيل فأعاد المدارس على اختلاف طبقاتها وزاد عليها فى فنون التعليم المختلفة وأنشأ مدرسة الإدارة التى سمّيت بعد (مدرسة الحقوق) ومدرسة للمعلمين ومدرسة للفنون والصناعات سميت بعد (مدرسة الصنائع) .

وقد كان أمام أولى الرأى فى الأمة طريقتان : أن يُحوّلوا المدارس القائمة كالأزهر ونحوه إلى مدارس تصطبغ بالصبغة المدنية وأن يأخذوها بذلك ، غير أنهم كما يظهر آثروا إرضاء الرأى العام ببقاء هذه المعاهد على نمطها الخاص من غير تغيير ، وآثروا الطريقة الأخرى وهى إنشاء المدارس المدنية بجانب المعاهد الدينية مع أنهم فى أول الأمر اختاروا كثيراً من أعضاء البعثات من الأزهر ، كأنما ينوون الطريقة الأولى ، ولكنهم حين عادوا درّسوا فى المدارس المدنية لا فى المعاهد الدينية .

ونتج عن ذلك أن كان فى البلاد نمطان من الثقافة : نمط أزهرى يسير عليه الأزهر وتحتذيه المساجد الكبيرة فى المدن ، وتأخذ به المساجد الكبرى فى الشرق ، وفى هذه كلها كانت تُدرس العلوم الدينية من تفسير وفقه وحديث وشىء قليل من الحساب للمواريث ، ومن الهيئة لمواقيت الصلاة ، فى كتب من نتاج المتأخرين ويُعنى فيها بتفهّم العبارات وإثارة الاعتراضات ، وكثرة المناقشات ، أكثر مما يُعنى فيها بروح الفكرة ، وجوهر الموضوع ، . .

وحتى كتب البلاغة التى كانت تُدرس لم تكن تُعلّم البلاغة لأنها لم تكن جيدة التعبير ، ولا قوية الأسلوب ، ولا تساعد على إخراج البليغ ، بل تخرج رجلاً فاهما لبعض العبارات مجادلاً فيها .

على أن من الحق أن نقول إنّ هذا النمط يُعلّم الصبر على القراءة والإمعان فى الفهم ، والتدقيق فى التعبير ، كما أنه رمز أو منبع للحياة الروحية التى لا بدّ منها بجانب الحياة المادية . أما النمط المدنى فكان يجرى وراء النمط الغربى : تُختار فيه أقرب الأساليب للتعلّم ، ويُعنى فيه بالموضوع أكثر مما يُعنى باللفظ ، ويستمدّ معارفه ومناهجه من الغرب فيما وصل إليه .

وقد نشأ عن هذا الاختلاف اختلاف فى عقلية المتعلمين واختلاف فى طرق التفكير وتحصيل المعرفة وتمثّلها ، باعد بين الطائفتين وكوّن منهما وحدتين فى الأمة ، على حين أن الغرب فى نهضته وحّد فى أساليب البحث والتعليم حتى فى المعاهد الدينية ، إذ كانت نهضته من نفسه ونهضتنا مجلوبة من غيرنا .

ولمّا كانت المدارس المدنية مضطرة إلى تعليم اللغة العربية والثقافة العربية بجانب العلوم المدنية والثقافة الغربية اضطر المصلحون أن يعالجوا مشكلة تعليم الثقافة العربية كى تسير المدرسة الواحدة على نمط واحد أو متقارب . وقد ظهرت هذه المحاولة فى عمل على باشا مبارك ومَنْ حوله كعبد الله باشا فكرى والشيخ حسين المرصفى وأمثالهما ، فألف على باشا مبارك كتبا لتعليم القراءة والكتابة على نمط حديث ، وألف عبد الله باشا فكرى كتابا فى المطالعة ، وألف الشيخ حسين المرصفى كتابا فى العلوم العربية وآدابها ، وألف غيرهم كتبا فى تقريب النحو ، كما أنشأ على باشا مبارك فى عهد اسماعيل مدرسة دار العلوم لتكون أداة الصلة بين النمطين يتخرّج فيها معلم اللغة العربية والثقافة العربية فى المدارس المدنية .

وهذا أيضاً كان له أثر أدبى . فقد نشأ أدباء يتثقفون الثقافة الغربية وشيئاً من الثقافة العربية ويستمدون أكثر وحيهم وأفكارهم وخواطرهم مما تمليه الثقافة الغربية والأدب الغربى وبجانبهم مثقفون لم يطلعوا إلا على الثقافة العربية يستمدون منها كذلك وحيهم

وخواطرهم وأفكارهم ، مما جعل فى الأمة مدرستين مختلفتين فى إنتاج الأدب العربيّ لا تزال أعلامهما واضحة إلى اليوم و إنْ تقاربتا بعض الشىء على مرّ الزمن .

* * *

ولا بد من الاشارة إلى ما كان لهذه النهضة من إنشاء دار الكتب المصرية فى عهد اسماعيل ؛ فقد كانت الكتب القيمة مبعثرة فى المساجد والمكتبات الخاصة عرضة للسرقة والتلف والإهمال حتى تسرب منها كثير إلى خارج البلاد ، و بيع كثير منها بأبخس الأثمان للبقالين والفرانين ، فأنقذ على باشا مبارك هذا الموقف بإنشاء هذه المكتبة العامة سنة ١٨٧٠ وجمع فيها كل الكتب التى عثر عليها فى المساجد وغيرها ، وأضاف إليها مجموعة ممّا طُبع فى مطبعة بولاق ، كما أُضيف إليها كثير من كتب حسن باشا المنسترلى ، وسُمّيت دار الكتب هذه فى أول عهدها الكتبخانة الخديوية ، وفُتحت أبوابها لمن أراد أن ينهل من العلم ؛ فكانت مدرسة قيمة بجانب المدارس الأخرى ومصدراً من مصادر الثقافة وخاصة الثقافة العربية ، وأصبح من الميسور على كل راغب فى المطالعة والدرس أن يجد طلبته فى هذه الدار .

* * *

هكذا كانت الحال فى مصر ، أما سوريا ولبنان فقد كان لهما شأن آخر ؛ إذ كانتا أكثر تبعية للدولة العثمانية وظلتا خاضعتين لها ولأنظمتها بعد استقلال مصر نوعا من الاستقلال ، و إن كان لبنان يتمتع ببعض الميزات لوضعه الخاص وتاريخه الخاص .

وكانت الدولة العثمانية لا تهتم كثيراً بالثقافة ونشرها فى غير عاصمتها ومع هذا فقد كانت سورية أسبق من مصر فى استخدام الطباعة تبعاً لسبق الدولة العثمانية فى هذا الباب ؛ فقد صُنعت الحروف العربية فى حلب فى أوائل القرن الثامن عشر — ووجد فى سورية ولبنان عامل خاص كان سبباً فى نهضتهما العلمية ، ذلك هو وجود العنصر المسيحى فيهما بكثرة ؛ إذ حمل كثيراً من دول أوربا وأمريكا على إرسال بعوث علمية للتبشير والتعليم فأنشأت هذه البعوث المدارس ، وكوّنت رجال التعليم ، وافتتحت المكتبات ، وأدارت المطابع ، ولم تكتف بالتعليم الدينى الذى هو غرضها الأول ؛ بل علمت ، بجانبه ، العلوم الحديثة من طبّ وطبيعة وكيمياء ورياضة ، فأقبل الطلبة عليها من مسيحيين ومسلمين ، فلما تخرج من هذه

المدارس متخرِّجوها أخـذوا هم ينشئون المدارس فى القرى والمدن ينشرون الثقافة بين أبنـاء البلاد .

وشجعت حركة التعليم هـذه على إيفاد بعوث إلى أوربا للتثقف فيهـا كالبعوث التى أرسلها محمد على .

وكما تزوَّد المثقفون من العلوم الغربيّة التفتوا إلى دراسة اللغة العربية وأدبها سـواء فى المدارس أو فى المطالعة الخاصة ، وخير من قام بالجمع بين الثقافتين المدرِّسون فى المدارس الذين اضطروا إلى تعليم المواد الحديثة باللغة العربيـة فشعروا بحاجتهم الشديدة إلى دراسة اللغة العربية وآدابهـا .

وربما كان من الفروق الواضحة ، بين مصر من نحو ، وسوريا ولبنان من نحو آخر ، أن الثقافة فى مصر بدأت قوية فى الناحية العلمية ثم اتجهت بعدُ إلى الناحية الأدبية ، على حين أن الثقافة فى سورية ولبنان اتجهت إلى الناحية الأدبية ثم إلى الناحية العلمية . كما كان من الفروق الواضحة أن النهضة المصرية كانت أول ما بدأت ، ثم استمرت ، على يد الحـكومة ، على حين أن الثقافة فى سورية ولبنان كانت على يد البعوث الأوربية وقادة الثقافة من أهل البلاد .

وكانت أسس النهضة فى سورية ولبنان هى بعينها أسس النهضة فى مصر من مدارس وطباعة وصحافة وبعوث ، وإحياء الـكتب العربية القديمة .

وعاصر الأمير بشير الشهابى الـكبير محمد على وكان مركزه فى بيت الدين فى لبنـان مركزاً لحركة أدبية لهـا أثرها . فقد قرَّب الشعراء والـكتاب وأجال فى مجالسه المناظرات ومنحهم المنح فتفتحت أذهانهم وتدفقت أقلامهم ، وكان من رجاله الأدباء الشيخ ناصيف اليازجى ، وبطرس كرامه ، ونقولا الترك .

وكثير من هؤلاء المثقفين فى سورية ولبنان ضاقوا ذرعا بالاستبداد وخنق الحرية التى كانوا يشعرون بها فى بلادهم فرحلوا إلى مصر وساهموا فى نهضتها وخاصة النهضة الصحفية .

* * *

أما العراق فكان لسوء الحظ أقل نهضة وأطول ركوداً ، إذ لم يجد من الاستقلال عن الدولة العثمانية ما وجدت مصر عند محمد على وذريته ، ولم يكن له الوفرة الـكثيرة فى

سكانه من النصارى مثل ما للشام ولبنان ، حتى يتجه إليه المبشرون ، وكانت الدولة العثمانية تعدّه مَنْفًى للمغضوب عليهم . ومن تثقف من أبنائه فثقافة عسكرية فى الاستانة . لذلك كله تأخرت نهضته إلى عهد فيصل ؛ فالحركة العلمية والأدبية فيه كانت مقصورة على النمط القديم تُدْرس فى معاهده الشيعية والسنيَّة من دين ولغة وأدب وفلسفة ، والنابغ منهم مصبوغ بهذه الصبغة ، كأسرة الألوسيين التى نبغ منها عدد من العلماء شاركوا فى مختلف أنواع الثقافة العربية على النمط القديم ، وأبرزهم فى ذلك فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الشهاب الألوسى (١٢١٧ — ١٢٧٠) (١٨٠٢ — ١٨٥٤) فقد كان له مقام كبير فى التفسير والإفتاء ، وله كتاب التفسير المشهور ، وكتاب كشف الطرّة شرح فيه درّة الغواص للحريرى ، وله مقامات وشعر قليل . وخلفه ابنه فى النصف الثانى من هذا القرن (١٨٥٧ — ١٩٢٤) ومن أشهر تآليفه بلوغ الأرب فى أحوال العرب ، وقد قدّمه إلى مؤتمر المستشرقين فى استكهولم ، وله كتاب أخبار بغداد وتراجم بعض علمائها فى القرن الثالث عشر ، وكتاب أمثال العوام فى مدينة السلام .

وعلى الجملة فلم يساير العراق الشام ومصر فى العلوم الحديثة والنهضة المدنية وإن ساير هما بعض الشىء فى الإنتاج الأدبى فى مواد الثقافة العربية .

فنون الأدب

(١) الشعر :

كان الشعر قبل النهضة الحديثة ، وفى أوائلها ، بادىَ الضعف ، شديد الهُزال ؛ وربما كان ضعفه وهزاله أظهرَ من ضعف النثر وهُزاله لأن الشعر فن جميل يعتمد على الجمال أكثر مما يعتمد على الحقائق ، فإمَّا أن يكون جميلاً و إما أن يكون عدمُه خيراً من وجوده ؛ أما النثر فقد يكون وسطاً ويكون مع ذلك مقبولاً .

وقد كان الشعر فى أول هـذه الفترة التى نؤرّخها يجرى على سنن الأقدمين من حصر نفسه فى الغزل والمديح والهجاء وشىء من الوصف ، ولـكنّه يختلف عن شـعر الأقدمين فى أنه حَفِظ الشكل وفقد الروح .

وربّما مثّل هذا الدور السيد اسماعيل الخشاب (المتوفى ١٨١٥) والشـيخ حسن العطار (المتوفى ١٨٣٤) والسيد على الدرويش (المتوفى ١٨٥٣) فى مصر . . ونقولا الترك (المتوفى ١٨٢٨) وبطرس كرامة (المتوفى ١٨٥١) فى لبنان . والشيخ أمين الجندى (المتوفى ١٨٤١) فى سورية .

فهؤلاء الشعراء كانوا ، فى الأغلب ، شـعراء للأمراء يهنئونهم بالأعياد ، أو يؤرخون حادثة من أحداثهم ، كبناء قصر ، أو ولادة مولود ، أو موت عزيز عليهم ، أو نحو ذلك .

وقد يشعرون لأنفسهم أو لأصدقائهم وهو ما يسمى بالإخوانيات ؛ وشعرهم فى هذا ، كذلك ، مصنوع لا مطبوع .

فقد يكون شيخاً من شيوخ الدين لم يقع قط فى أسْر عشق ثم يتغزل لا يقصد من عزله إلاّ أن يُحاكى ضرباً من ضروب الشعر الذى جرى عليه القدماء ، حتى لقد يتغزل فى غلام ، أو يصف الخمر ، وهو آمن ، لأن الناس قد ثبت فى أذهانهم أن الشعراء يقولون ما لا يفعلون .

وقد ظلّ الشعر على هذا الحال حتىّ فى أول عصر النهضة ، لأن النهضة فى أول أمرها لم تكن نهضة شعرية و إنما كانت نهضة علمية وثقافية ، واحتاج الشعر إلى زمن حتى يتأثر بها أو يدركها .

ولنضرب لذلك أمثلة . . فيقول الخشاب متغزلا :

يا شقيق البـدر نوراً وسنا وأخا الغصن إذا ما انعطفا
بأبى منـك جبينا مشرقا لو بدا للنـيرين انكسفا
بغيتى منك رُضاب ورضا وعلى الدنيا ومن فيهـا العفا

ويقول العطّار :

أفلا رثيتَ لعاشق لعبتْ به أيدى المنون ونازعته خطوبه
أنت النعيم له ، ومن عجب تعذّ به وتمرضـــه وأنت طبيبه

ويقول السيد على الدرويش يمدح محمد على باشا ويؤرخ مجىء الجراد وموت البقر :

يا صاح ما هـذا الخبر قالوا الجراد هنـا ظهر
قلتُ الجراد فقال إى تدرى الجرادَ إذا ابتدر ؟
قلتُ استعذ بالله قا ل وهل من المقضى مفر
ما كان قط بخـاطرٍ فى خاطرى هـــذا الخبر

***

جاء الجراد كأنه يتلو على البقر السـور
أو أن أرواح البهـا ئم ألبست تلك الصور

***

فترى الجراد على الجر يد مكللاً مثل الثمر
رُقْشٌ تراها إنهـا نار تلظت بالشـجر
لوّاحـة للأرض لا تبقى النبـات ولا تذر
وصغـيرة فى حجمها لـكنها إحدى الـكُبر
الأرض كانت جنّـة فالآن تُرمى بالشرر

***

دقّوا الطبول لرقصـه فى الزّرع لما أن زمر

وغزوا على ذا المعتدى　　فمضى هزيما وانكسر
وكذا الخديوى عادة　　لم يغزُ إلاَّ وانتصر

***

هـل للخديوى مشبه　　فى همـة أو فى سِـيَر
هـل قبـله ردَّ الجرا　　دَ سـواه فيما قد غَبَر

ويختمها مؤرخاً بقوله :

أرختـه وصـل الجرا　　د لمصر فى عام البقر
١٢٥٩

ويقول الشيخ شهاب فى قصيدة تكتب على جامع القلعة :

فدع قصر غمدان وأهرام هرمس　　وإيوان كسرى إن أردت اتهتدى
ودع إرماً ذات العماد ونحوها　　وعرشا لبلقيس كصرح ممرَّد
ودع أموى الشام وانزل بمصرنا　　وبادر إلى هــذا بإيماء مرشـد
فلو عُدّدت فى الـكون بدء بدائع　　لكان به خـتم لذاك التعـدّد
كأن الليـالى الوالدات عجـائباً　　أصـبن بعقم بعد هــذا التجدّد

ويقول بطرس كرامة يصف ينبوع الصفا وإجراء مائه إلى بيت الدين على عهد الأمير بشير الشهابى :

صـاح قد وافى الصفا يروى الظما　　بشرابٍ كوثرى ألعس
وأفاض الشهد فى روض الحما　　لجـلا الغمّ وبُرء الأنفس

ويقول فى وصف باقة زهر أهداها له الأمير بشير :

وباقة زهر من مليك مُنحتها　　معطّرة الأرواح مثـل ثنائه
فأبيضها يحكى جميـل خصاله　　وأصفرها يحكى نضـار عطائه
وأزرقها عين تشاهد فضـله　　وأحمرها يحكى دماء عدائه

ويقول الشيخ أمين الجندى يصف الربيع والربوة فى دمشق :

يا حبذا الربوة من دمشق　　بالفضل حازت قصبات السبق
كم أطامت بها يدُ الربيع　　من كلّ معنى زائد بديع
وفككت أنامل النسيم　　أزرار زهر الرّند والشميم
وسقطت خواتم الأزهار　　من فنن الأعصان كالدرارى
والتف سيف البرق فى أوراق　　مذ شام خيل الريح فى سباق
ما بكت السماء بالغمام　　إلاّ وصار الزهر فى ابتسام

وهكذا كان أغلب الموضوعات التى يجرى فيها الشعر هى التأريخ لدار أو مسجد ، أو التهنئة بمولود ، أو الشكر على هدية ، أو رثاء فقيد ، أو قصيدة لصديق فى عارض حدث والرد عليها من صديقه ، أو تشطير أبيات أو تخميسها أو تسبيعها .

أما شعر القلب فقلما تعثر عليه ، وأما شعر يعرض لوصف الحياة الاجتماعية أو بؤس الشعب ، أو صرخة من ظلم ، أو مناداة بعدل فغير موجود ، لأن السلطات لم يكن صدرها يتسع لذلك ، والشعراء أنفسهم ليس لهم من الثقافة العالية ، ولا من المركز الاجتماعى ، ما يؤهلهم لعشق الحرية أو التغنى بجمال الطبيعة أو نحو ذلك مما خاض فيه الشعر من بعد .

حتى إذا كانت النهضة ، وتقدمنا بعض الشىء ، بدأ المطلعون على الآداب الغربية يتأثرون بها ، ويقتبسون منها ، ومن أمثلة ذلك محمد عثمان جلال المولود سنة (١٨٢٩) فقد درس بعض اللغات الأوربية فى مدرسة الألسن ، وتدرج فى الوظائف إلى أن كان قاضياً ، وقد ترجم عن الفرنسية رواية بول وفرجينى ، كما ترجم قصص لافونتين شعراً بتصرف ، ونشرها فى كتاب اسمه (العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ)

وكان جلال شاعراً مطبوعاً خفيف الروح ، وربما وضع من شعره عند من أرّخوا الشعر ونهضته أنه كان سهل الأسلوب متدفقه ، لا يكثر من التأنق والتجمل ، وكثيراً ماجنح إلى العامية يقول فيها شعره .

ومن أمثلة ما ترجمه فى العيون اليواقظ قصة شجرة البلوط والسنديانة :

حكاية عن شجر البلوط　　نقلتها عن شيخنا السيوطى

قال إلى سنبلة من فول ليتك فى العلوّ تحكى طولى
ليتك لو غرست تحت رجلى وكنت فارقت الحمى من أجلى
وكنت فى أمن من العواصف قالت له ما مسنى من تلف
إنى وإن كنت نحيف القامه وفى الهوى لا أملك استقامه
فإن ما عندى من اللدونه وقت الرياح يوجب المرونه
وأنثنى تيها على أمثالى وبالرياح قط لا أبالى
وبينما الاثنان فى تنازع إذ نفخت منافخ الزعازع
واغبرّت الآفاق والبطاح وجلجلت فى الشجر الرياح
وقد أصابت قامة البلوط ونزلت به إلى الهبوط
وسنبل الفول يميل تاره وينثنى أخرى مع الاماره
ولم يصبه من أذى ولا ضرر وربما كان الهلاك فى الكبر

وقد تأثر الشعر بعوامل النهضة التى ذكرناها من قبل وإنْ تأخّر تأثّره عن تأثر النثر ؛ فقد كانت الحاجة إلى النثر أقوى ؛ فنشْرُ دواوين الشعراء الأقدمين مكّن ناشئة الشعراء آنذاك من الاطلاع على شعر الفحول من متقدمى الشعراء بعد أن كانوا لا يطلعون إلاّ على شعراء زمانهم أو ما قرب من زمانهم ، والاطلاع على شعر الفرنجة مكّن بعضهم من الاقتباس منه والتأثر به ؛ وتغيُّر البيئة الاجتماعية نفسها ، على أثر الاحتكاك بالأجانب ، غيّر من الشعر ، لأن كل أدب سواء كان شعراً أو نثراً أو قصة يتأثر بالبيئة إلى حدّ كبير .

ومع هذا كله فلم يكن تقدم الشعر طفرة وإنما كان تدرّجا؛ فقد تنقّل من محافظين إلى مخضرمين إلى أحرار مجدّدين . فمثلاً كان يغلب على الشعر العربى المديح ونحوه من الأغراض التقليدية ، غير أن شأنه أخذ يضعف شيئاً فشيئاً بحلول الحياة الديمقراطية محل الحياة الأرستقراطية ، وتقويم الشعوب أكثر من تقويم الأمراء ، ولم يخلص منه دفعة واحدة فوجد شعراء مخضرمون يقولون فى المديح مثل ما يقول الأقدمون ؛ وحتى فى المخضرمين نرى أثر ذلك فى التخفّف من الغلوّ ، والانصراف عن المبالغة ، وغلبة القصد والاعتدال .

كما قلّت العناية بالهجاء لأنّ المدنية ورقيّها ، ورقة الذوق تأنف من الهجاء الفاحش ، ولا تسمح إلا بالهجاء بالإيماء .

واستمر الغزل محتفظاً بمركزه فى الشعر الجديد كما كان فى الشعر القديم لأنه ينبع من عاطفة ملازمة للانسان فى بداوته وحضارته واختلاف حالاته الاجتماعية ، فإن تغير فى شىء فميله إلى التعبير الصادق عن طبيعة الشاعر ودقته فى تصوير عاطفته ؛ وقد كان أكثره مصنوعاً يصدر عمّن لا يعشق .

وكذلك ما كان من رُقّ الشعر فى الطبيعة وجمالها ، فقد كان يفهم من هذا النوع أنه عبارة عن جَهْد الشاعر فى أن يجد للمنظر تشبيها ، وكفى ،فبدأ يتحوّل إلى محاولة للشاعر أن يشرب المنظر الطبيعى ويرتوى به أو يحتضنه . ثم يبث ذلك كله مشاعر فى شعره ، أو أن يفنى الشاعر فى هذا المنظر الجميل ويصف فناءه .

ثم خلقت المدنية والظروف الاجتماعية الشعرَ السياسى والاجتماعى . نعم كان هناك شعر سياسى فى العصور الأولى كالذى نراه فى شعراء الزبيريين والأمويين من أمثال عبد الله بن قيس الرقيّات وجرير والفرزدق والأخطل، ولكن كانت له صبغة خاصة لا تتصل بالشعوب وحرياتها ، إنما يتجه إلى الانتصار للقادة ومن بيدهم زمام الأمور ؛ فلما نشأت المدنية واحتك الشرق بالغرب وطمحت أوربا فى استعمار الأمم الشرقية تيقظ الوعى القومى يدافع عن هذا الطمع ، حتى إذا كان الاحتلال وُجدت النزعة إلى الاستقلال ، فكان الشعراء يمثلون دورهم فى هذا الباب ، وكان الشعر السياسى بهذا المعنى .

وكذلك كان الشأن فى الشعر الاجتماعى ، فقد أخذ الشعراء يحسون آلام الشعوب وعللها وآفاتها ، مثل قولهم فى تحرير المرأة وتربية الأطفال ومضار القمار والاعتزاز باللغة العربية ونحو ذلك .

كما كان من أثر تقليد الشرق للغرب اتجاه الشعراء إلى الشعر التمثيلى تقليداً لما عند الأوربيين ، كما فعل الشيخ خليل اليازجى المتوفى ١٨٨٩ ، إذ ألف قصة المروءة والوفاء فى نحو ألف بيت نظمها حول قصة حنظلة الطائى مع النعمان .

هذا من ناحية الموضوع . أما من ناحية الأسلوب والأوزان والقوافى فقد كانت روح المحافظة أشد مما كانت فى الموضوع ، فحوفظ على الأوزان والقوافى إلا فى القليل النادر ، وأكثر ما يظهر الميل إلى الأوزان القصيرة ، ونشوء القصيدة التى لا تلتزم قافية واحدة بل تتعدد قوافيها فى المقطوعات المختلفة ، وقد حاول بعضهم تقليد الشعر الفرنجى بإنشاد الشعر المرسل ، ولكنها كانت حركة لم يكتب لها الانتشار .

ورقى الأسلوب من ناحية جزالته وتأثره بشعر الفحول من القدماء ورغبة الشعراء عن الإفراط فى أنواع البديع وميلهم إلى قربه من أذهان الناس بوضوحه وجماله البسيط .

* * *

وربما كان البارودى أول ناهض بالشعر العربى ، وساعدته ظروفه الخاصة على هذا النضج الشعرى ؛ فهو من عنصر أرستقراطى ينحدر من أصل شركسى وينتسب إلى المماليك ، وتربّى تربية عسكرية ، فقد تعلم فى المدرسة الحربية وخرج منها ضابطا وترقّى فى رُتب الجيش ورأس حملة فى حرب تركيا مع الروس ، وفى ثورة كريت ، وتولى نظارة الأوقاف ثم رياسة النظّار قُبيل الثورة العرابية . وله ثقافة تركية وفارسية اطّلع فيها على آداب اللغتين ونظم فيهما ، ورأى الدنيا بأشكالها وألوانها ، فعاش عيشة الترف كما يعيش شبان الأغنياء فى مصر ، وجلس مجالس اللهو والشراب وتعرّض للغزل ، وأحب ولها ، واتصل بالوظائف الحكومية فى عهد إسماعيل فمكّنه ذلك من دراسة الحياة الاجتماعية والسياسية فى مصر ، ورحل إلى الآستانة وأوربا ورأى مدنيتهما فاستفاد منها ، وشارك فى الثورة العرابية واكتوى بنارها .

كلّ هذا صادف طبيعة شعرية تستغل كل ما يعرض لها من أحداث ، فجعل منه شاعراً ممتازاً .

وأهم ميزة له أنه صادق فى شعره يعبّر عمّا رأى وسمع وأحسّ .

وكلّ هذا يفسّر ما غلب على شعره من إكثار من الفخر ، صدّى لما حسبه ونسبه ومناصبه .

رزقه الله أوّل أمره بمربّين من الأدباء كالشيخ حسين المرصفى ، حببوا إليه شعر الفحول الأقدمين ، فتشرب منه ومزجه بنفسه وحفظ منه الكثير ، واكتفى بأن تنطبع الصيغ والأساليب ووجوه الإعراب والقوافى والأوزان فى نفسه من غير تعلّم للنحو والقواعد والعروض والمصطلحات ... ثم بدأ يحاكى بعضها ويعارضها ، فخرجت محاكاته ومعارضاته قوية حسنة السبك ، متينة الأسلوب ، لا تقل شأناً عن القصائد التى يعارضها .

عارض أبا نوّاس فى قصيدته :

أجارة بيتينا أبوك غيور ... وميسور ما يُرْجَى لديك عسير

بقصيدته : أبى الشوق إلا أن يحنّ ضمير ... وكلّ مشوق بالحنين جدير

والشريف الرضى فى قصيدته :

لغير العلى منى القلى والتجنب ... ولولا العلى ما كنت فى الحب أرغب

بقصيدته : سواى بتحنان الأغاريد يطرب ... وغيرى باللذات يلهو ويلعب

وأبا فراس فى قصيدته :

أراك عصىّ الدمع شيمتك الصبر ... فما للهوى نهىٌ عليك ولا أمر

بقصيدته : طربتُ وعادتنى المخيلة والسكر ... وأصبحت لا يَلوى بشيمتى الزّجر

ثم شعر لنفسه فيما يشعر به من فخر بالآباء ، وفخر بنفسه ، واعتزاز بقوته . ووصَف معامع الحروب كما رآها ، والحياة الاجتماعية كما أحاطت به ، وألاعيب السياسة كما اكتوى بنارها ... ولما نُفى إلى جزيرة سرنديب وصف حنينه إلى وطنه ، وما كان يعتوره من شعور بألم الغربة وشعور بالرجولة التى يجب أن تتحمل الآلام فى شجاعة ، إلى غير ذلك مما كان فيه صادق الوصف ، مرهف الحسّ ، جزل اللفظ ، قوىّ الأسلوب .

وقد مات بعد أن رجع من منفاه سنة ١٩٠٤ .

وتظهر ميزات البارودى إذا نحن قسناه بشعراء عصره أمثال محمود صفوت الساعاتى (المتوفى سنة ١٨٨٠) فقد كان أكثر شعره فى مدح أشراف مكة والحجاز ، على حين أن البارودى لم يمدح إلا قليلا ، وكان مديحه على هامش شعره لا فى الصميم من شعره .

ثم كان صادقا فى التعبير عن نفسه فى أدوار حياته ، فإذا لها ، أو أحب ، وصف ما يشعر

به فى لهوه وحبّه ، وإذا حارب برع فى وصف الجيوش والمعارك ، وإذا أحاطت به أحداث الثورة وصف ما رأى ، وإذا نُفى قال فى طمأنينته وجزعه .

وهو فى بعض الأحيان يعرض للشئون الاجتماعية ، مثل وصف اضطراب الحالة فى مصر من تدخل الأجانب ، وفى لوم قومه على التراخى فى رفع الظلم والعدوان عنهم ، وفى بؤس الشعب من ظلم حكامه .

ثم إن البارودى قد نقل بشعره المثل الأعلى من نظرٍ فى الشعراء فى العصور المظلمة المتأخرة إلى نظر فى الشعر العربى فى أزهى عصوره العباسية ، فكان فى كل ذلك مجدّداً إلى درجة ما .

هذا إلى اختراعه أحيانا لبعض أوزان الشعر كقصيدته :

لوى جيده وانصرف ما ضرّه لو عطف

وقصيدته الأخرى : املأ القدح واعص من نصح

وكلتاهما مما نسج عليه شوقى فى قصيدته :

حفّ كأسها الحبب فهى فضة ذهب

وقصيدته : مال واحتجب وادّعى الطرب

و إن حاول بعضهم أن يخرّج القصيدتين على الأوزان القديمة .

ومن أمثلة شعره فى الفخر قصيدة طويلة منها :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب وغيرى بالذات يلهو ويُعجب
وما أنا ممن تأسر الخمرُ لبّه ويملك سمعيه اليراع المثقب
ولكن أخوهمّ إذا ما ترجّحت به سورة نحو العُلا ، راح يدأب
نفى النوم عن عينيه نفس أبيّةٌ لها بين أطراف الأسنّة مطلب
ومن تكن العلياء همةُ نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبّب
إذا أنا لم أُعط المكارم حقّها فلا عزّنى خال ولا ضمنى أب

* * *

خُلقتُ عيوفا لاأرى لابن حُرَّة ... عليَّ يداً أُغضى لها حين يغضب
فلستُ لأمرٍ لم يكن مُتوقّعاً ... ولستُ على شىء مضى أتعتّب
أسيرُ على نهج يرى الناس غيرَه ... لكل امرئٍ فيما يحاول مذهب
وإنى إذا ما الشك أظلم ليلُه ... وأمست به الأحلام حَيْرَى تشعّب
صَدَعْتُ حِفافىْ طرَّتيه بكوكب ... من الرأى لا يخفى عليه المُغيَّب

ومن شعره يصف الحرب :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا ... ودارت ، كما تهوى ، على قُطبها ، الحربُ
وزُيِّن للناس الفرار من الرَّدَى ... وماجت صُدور الخيل والتهب الضَّرْب
ودارتْ بنا الأرضُ الفضاء كأنَّنا ... سُقينا بكأسٍ لا يُفيق لها شَرْب
صبرتُ لها حتى تجلّتْ سماؤها ... وإنى صبُورٌ إن ألمَّ بىَ الخَطب

وقوله يصف الفراق :

محا البين ما أبقت عيون المها منِّى ... وشبتُ ولم أقض اللُّبانة من سنِّى
عناء ويأس واشتياق وغُربةٌ ... ألا شدَّ ما ألقاه فى الدهر من غَبْن
فإن أك فارقت الديار فلى بها ... فؤاد أضلَّته عيون المها عنِّى
بعثت به يوم النوى إثْر لحظة ... فأوقعه المقدار فى شَرَكِ الحُسْن
فهل من فتىً فى الدهر يجمع بيننا ... فليس كلانا عن أخيه بمستغن

* * *

ولما وقفنا للوداع وأسبلت ... مدامعنا فوق الترائب كالمُزن
أهبت بصبرى أن يعود فمزَّنى ... وناديت حلمى أن يثوب فلم يُغن
وما هى إلاَّ خطرة ثم أقلعت ... بناعن شطوط الحى أجنحة السُفْن
فكم مهجة من زفرة الوجد فى لظًى ... وكم مُقْلةٍ من غزرة الدمع فى دَجْن
وما كنت جرَّبت النوى قبل هذه ... فلمَّا دهتنى كِدْت أقضى من الحزن
ولكننى راجعت حلمى وردَّنى ... إلى الحزم رأى لا يحوم على أفْن
ولولا بُنيَّات وشيبٌ عواطلٌ ... لما قَرَعتْ نفسى على فائت سنِّى

وقال يحن إلى مصر وهو فى منفاه :

رُدُّوا علىّ الصبا من عصرىَ الخالى ... وهل يعودُ سوادُ اللِّمة البالى ؟
لم يدر من بات مسروراً بلذّته ... أنّى بنار الأسى من هجره صالى
يا غاضبين علينا ، هل إلى عِدَةٍ ... بالوصل يومٌ أُناغى فيه إقبالى ؟
غِبتم فأظلم يومى بعد فُرقتكم ... وساءَ صُنع الليالى بعد إجمالى
فاليوم لا رسنى طوعُ القياد ، ولا ... قلبى إلى زهرة الدنيا بميّال
أبيتُ منفرداً فى رأس شاهقة ... مِثْلَ القَطامِىّ فوق المرْبأ العالى

وقال يصف الناس من حوله :

إنى امرؤ ملك الوداد قيادتى ... وجرى على صدق العهود وفائى
لكننى غرض لأسْهم حاسد ... وارى الجوانح من لهيب عدائى
من غير ما ذنب جنيت وإنما ... بغضُ الفضيلة شيمة الجهلاء
تعست مقارنة اللئيم فإنها ... شَرَق النفوس ومحنة الكرماء
أنا فى زمان غادر ، ومَعاشر ... يَتلوّنون تلوّن الحرباء
أعداء غيب ليس يسلم صاحب ... منهم ، وإخوة محضر ورخاء
وأشد ما يلقى الفتى فى دُهره ... فقد الكرام وصحبة اللؤماء
شقى ابن آدم فى الزمان بعقله ... إن الفضيلة آفة العقلاء

وقال يلوم ويحرّض :

لكننا غرض للشر فى زمن ... أهل العقول به فى طاعة الخَبَلِ
قامت به من رجال السوء طائفة ... أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدَّسْتُ يدفعه ... بُغْضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت ... قواعد المُلْك حتى ظلّ فى خَلل
وأصبحت دولة (الفسطاط) خاضعة ... بعد الإباء ، وكانت زهرة الدول
فما لكم لا تعاف الضيم أنفسكم ... ولا تزول غواشيكم من الكسل

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا شكالة الرّيث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا لكلّ منتزع سهما ومُختتل
عيش الفتى فى فناء الذل منقصة والموت فى العزّ فخر السادة النُّبُل

وكان فى هذا العصر من الشعراء شعراء عاشوا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وامتدت حياتهم المباركة إلى القرن العشرين وامتازوا ببعض المزايا الشعرية .

فحفنى ناصف مثلا (المتوفى ١٩١٩) له شعر سهل اللفظ سهل الأسلوب يمتاز بالفكاهة الحلوة فى الحوادث التى عرضت له كشكواه من (قنا) حينما نقل إليها إذ يقول :

رقّيتنى حِسًّا ومَعْنى فلصنعك الشكر المثنى
وجعلت رأس الحاسديـن بمصرَ من قدمىّ أدنى
أسكنتنى فى بقعة فيها غدوتُ أعزّ شأنا
أرد المشارع سابقاً والسبق عند الورد أهنا
وأزور آثار الملوك وكنت قبلُ بها مُعنَّى
بلدٌ إذا حلّت به قدماكَ قلت حللتُ حصنا
قالوا شخصتَ إلى قنا يا مرحبا بقنا و « إسنا »
قالوا : قنا حرٌّ فقلتُ وهل يردُّ الحرَّ قِنّا
سر الحياة حرارة لولاه ما طيرٌ تغنّى
كلاّ ولا زهر تبسّم ، لا ولا غصن تثنّى
ها قد أمِنتُ البردَ والبُرَداء ، والقلب اطمأنا
ووقيتُ أمراض الرطوبة ، واسترق الريح وهنا
ألقى الهواء فلا أهابُ لقاءه : ظهراً و بطناَ
وأنام غير مُدَثّر شيئاً إذا ما الليل جنّا
قد خفّت النفقات إذ لا أشترى صوفا وقُطنا
وَفّرْتُ من ثمن الوقود النصف أو نصفا وثمنا
فالشمس تكفُل راحتى فكأنها أمى وأحنى

فإذا بدت لى حاجة في الغسل ألق الماء سُخْنا
أو رُمتُ طبخا أو علا ج الخبز ألق الجوّ فرنا
مكنى القُرى تدع السفيه موكلا بالمال مُغْنَى
أىّ الملاهى فيه يصرف ماله ومتىَ وأنّى
عش فى القرى رأسا ولا تسكن مع الأذناب مدنا
ودع الجزيرة والمها والجسر والظبى الأغنّا
واسلُ الأغانى والغوا نى ، واسأل الرحمن عَدْنا

ومثل إسماعيل باشا صبري المولود سنة ١٨٥٤ والمتوفى سنة ١٩٢٣ ، ويمتاز بثقافته الواسعة إذ درس القانون فى مصر وفرنسا ، ورقى فى المناصب الحكومية إلى أن عُيِّن وكيلا للحقانية . وقد شعر فيما شعر فيه أسلافه من مديح وتهان وتقريظ ، وسلك فى ذلك مسلك الشعراء الذين قبله والشعراء المعاصرين له ، فمدوحه : قد سفر فلاح منه هلالُ سعود ، وبدا فكان غُرّة الوجود . وهو بحر مستعذب الورد ، يعم كل الناس بالرفد .

ويُحلّى شعره بالتورية والجناس ، ويختمه بالتاريخ فيقول :

فيا (مالكى) (نعمان) خدك (شافعى)
لدى (حنبلىّ) العَذْل إذ قام بالعُذر

ويقول :

فاهنأ بنجلك إن السعد أرّخه (لبيب دام لك المحفوظُ محمودُ)

أما الناحية التى نبغ فيها فهى مقطوعاته القصيرة يُجرى فيها ذوب قلبه ويمزج فيها دم نفسه بمعناه ولفظه ، يغنى فيها لنفسه ، ويقصد بها إلى بثّ لوعته ، وتخفيف كربته . وقد كان فى هذا يتحرّى أن ينقد شعره قبل أن ينقده الناس ، يطيل إجالة المعنى فى نفسه ، ويتريث فى نظمه ، ويتمهل فى صوغه ، يغوص على المعانى كالغواص على اللآلى ، ثم لا يقنع بأية لؤلؤة ولا يرضى بها إلا أن تكون غاية القصد وواسطة العقد ، ويرى أن شعره كعرضه يحرص أن يطيب نشرها ، ويخلد فى الصحائف ذكرها . ويقول فى ذلك :

شعر الفتى عرضه الثانى فأخر به ألا يشوّه بالأقذار والوضَر
فانقد كلامك قبل الناقدين تخط ثانى النفيسين من لغو ومن هذر

وهذه المقطوعات التى عُنى بها يتجلّى فيها صدق العاطفة حتى ليبكى السامع لبكاه، ويأنف لأنفته، كما يمتاز بدقة المعنى ورقته حتى كأنه مناغاة أطيار، أو مناغمة أوتار. ويصغى إليه السامع فى دعة وسكون لا فى ضوضاء وجلبة، ولهذا كثيراً ما تغنّى به المغنون، وأعجب به السامعون؛ من مثل قوله:

أقْصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى ردّ ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرتَه زمناً حَمْلَ الصبابة فاخفق وحدك الآنا
هلاّ أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما فى الوصل ناراً وفى الهجران نيرانا

وقوله:

يا مقرّ الغزال قد صح عندى الـ يوم أنى اقتحمت منك عرينا
رابنى فيك ما أرى من عيون بات يُغرى بها السواد عيونا
وضلوع جاءتك وهى خوال ثم عادت ملأى هوًى وشجونا
ما الذى يبتغى غزالك منى بعد كونى عبداً له أن أكونا
كلّما قلت: قد أبلّ فؤادى ساورته الذكرى فجُنّ جنونا

وقوله:

يا راحة القلب يا شغل الفؤاد صِلِى مُتَيَّما أنت فى الحالتين دنياه
زينى النَدِىّ وسيلى فى جوانبه لطفاً يمرّ رعايا اللطف رَيّاه
ريحانةٌ أنت فى صحراء مُجدبة من الرياحين حيّانا بها الله
إن غاب ساقى الطلا أو صدّ، لا حرجٌ هذا جمالك يغنينا مُحَيّاه

وقوله:

أبثك ما بى نابُ ترنّحى وَرُحمتِ أخا لوعةٍ مات حُبّا
وأشكو النوى ما أمرّ النوى على هائم إن دعا الشوق لبّى

وأخشى عليك هبوب النسيم ... وإن هو من جانب الروض هبّا
وأستغفر الله من بُرهة ... من العمر لم تلقنى فيك صَبّا
تعالَىْ نجدّد زمان المنـاء ... وننهب ليـاليه الغُرّ نهبا
تعالَىْ أذق بك طعم السلام ... وحسبى وحسبك ما كان حَرْبا

* * *

وربما كان من الظواهر التى تلفت النظر ظهور أديبات شاعرات بجانب الشعراء ، قد ثقّفن كما يثقَّف الرجال ، وشعرْن كما يشعر الرجال .

ومن أبرز هؤلاء عائشة التيمورية المولودة فى القاهرة (١٨٤٠) والمتوفاة فى أوائل القرن العشرين (١٩٠٢) نشأت فى بيت من بيوت الفضل والأدب ، وثقفت اللغات العربية والتركية والفارسية ، ونظمت الشعر بها ، ولها ديوان شعرى أسمته حلية الطراز ؛ وكتاب نثرى أسمته نتائج الأحوال . ومن شعرها قولها :

بيَد العفاف أصون عزّ حجابى ... وبهمتى أسمو على أترابى
وبفكرة وقّادة ، وقريحة ... نقّادة ، قد كمّلت آدابى
فجعلت مرآتى جبين دفاتر ... وجعلت من نقش المداد خضابى
ما عاقنى خجلى عن العليا ولا ... سَدْل الخِمار بلمّتى ونقابى
عن طىّ مضمار الرهان إذا اشتكت ... صعبَ السباق مطامحُ الرُّكاب

ومن هؤلاء وردة اليازجى (١٨٣٨ — ١٩٢٤) وهى ابنة الشيخ ناصيف ، ولدت فى لبنان وأفادت من أبيها فنون الأدب ، ومات عنها زوجها فانتقلت إلى مصر ، حيث أخذت تنشر نظمها ونثرها ، ولها ديوان مطبوع معروف .

وليس فى شعرها وأمثالها جديد ، وإنما الجدّة فيه أنه شعر نساء .

* * *

ثم انتقل الشعر خطوة جديدة بعد ذلك تتجلى فى تحوّله إلى النظر إلى الشعوب ، والإكثار من موضوعات الوطنيات والقوميات والاجتماعيات ، من مثل طلب الاستقلال ، ومحاربة الاستعمار والمستعمرين ، والعطف على المظلومين والمنكوبين .

وقد بدأ هذا التحول فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ونما فى القرن العشرين ، وشعر فيه من عاشوا فى هذين القرنين أمثال شوقى وحافظ وخليل مطران وولى الدين يكن والزهاوى والرصافى .

وتبع ذلك رقىّ منزلة الشعر فبعد أن كان ينظر إليه كما ينظر إلى الضارب بالدف يتغنّى بالمدائح أصبح يُنظر إليه على أنه فنان ماهر يخدم الهيئة الاجتماعيـة ويبين عنها ؛ وسيأتى توضيح ذلك عند الكلام عن القرن العشرين إن شاء الله .

وقد ظهر التجديد فى الشعر أيضاً فى التعرض للموضوعات الجديدة كالقول فى المخترعات الحديثة من مثـل القول فى القطار والطائرة والمنطاد والـكهرباء ، وكالقول فى مظاهر الحياة الاجتماعية الجديدة كتحرير المرأة وغيرها ، ومن أمثلة ذلك قول نجيب الحداد (المتوفى ١٨٩٩) فى القمار :

قد اختصروا التجارة من قريب فقُدم فى الدقيقـة أو يسارُ
كأن وجوههـم ندماً وحزنا كساها لون صـفرته النُضارُ
فبينا تبصرُ الوجنـاتِ وَرداً إذا هى فى خسـارتهم بهار
عصـائب لا يودّ المرء فيهـا أخاه ، ولا يُراعى الجار جارُ
يلاحظ بعضهم بعضـاً بعين يكاد يضىء أسودها الشرار
فكم غضبوا على الأيام ظلماً وكم حنقوا على الدنيا وثاروا
وكم تركوا النسـاء تبيت تشكو وتُسعدها الأصيبية الصـغار
تبيت على الطوى ترجو وتخشى بوارقها السهاد والانتظـار
فبئست عيشـة الزوجات حزن وتسهيد وهجـر وافتقار
وبئست خلّة الفتيـان همّ وأتعـاب وخسران وعار

وكقوله فى وصف القطار :

تخلَّ عن التشبيب بالبيض والسُّمْر ودَعْ عنك تشبيه المحاسن بالبدْر
وعج بى إلى طرق الحديد ووصفها الـجديد ودع ما مرّ من قِدَم الدهر
ففيها يروق الوصف وهى حقائق وفيها يحقُّ النعت لامذهبُ الشعر

وعنها يصحّ القول إنّ قيل بارق ... يشق الفلا لا عن جواد ولا مُهر
فطيرٌ بلا جنح ، وطود بلا بقا ... وبرق بلا جوّ وهادٍ بلا فكر
بلى هى طير ، والبخار جناحه ... وطودٌ إذا شبهتَ بالطود ما يسرى
وبرق ولكنّ الدخان سحابُه ... وهادٍ له لُبٌّ توقّد عن جمر
يسير فما يدرى لسرعة سيره ... أتجرى لديه الأرض أم فوقها يجرى
وللريح حولَيْه حفيفٌ ، كأنه ... حفيف جناح الصقر حنّ إلى الوكر
إذا ثار ثارت فوقه راية من الد ... خان لتنبى أنه ملكُ القفر
تمزّقها الأرياح حنقا كأنها ... تحاول فى تمزيقها الأخذ بالثأر

* * *

ومن مظاهر التجديد التى حدثت ما كان من أثر هجرة جماعة من السوريين واللبنانيين إلى القارة الجديدة وتشربهم من مناهل الحياة الاجتماعية ، وتثقفهم بالثقافة الحديثة ، فأتوا فى الشعر بجديد ، وكان على رأسهم جبران خليل جبران المولود فى لبنان ١٨٨٣ والمتوفى فى نيويورك ١٩٣١ وتظهر هذه الجدّة فى سعة الخيال ، ومحاولة خلق الشعر المرسل ، والتأثر بالأساليب الغربية ، كما تظهر من ناحية أخرى فى الإشادة بالحرية والثورة على ضعف الإنسانية الغربية .

ولم تتم هذه الحركة وتنضج إلا فى القرن العشرين ، ومن ثم نرجئ تأريخها إلى ما بعد .

(ب) النثر

كان حظ النثر فى الرقّ خيراً من حظ الشعر لأن المثقفين من الناثرين ثقافة عربية كانوا أكثر عدداً من المثقفين من الشعراء وذلك طبيعى ، ولأن حاجة الأمة إلى الناثرين أكثر من حاجتها إلى الشعراء فالنثر ضرورى والشعر كمالى ، فقد استُخدم النثر فى الصحافة وفى تأليف الكتب وفى تبادل الرسائل وفى الدعوة إلى الإصلاح وفى الخطابة وفى الترجمة

الأدبية والحركة العلمية ، وقد تعاونت هذه كلها على تقدم النثر وصقله حتى وُفِّق أن يخطو هذه الخطوة الواسعة .

وكذلك استطاع النثر بعد قليل من ظهور عوامل النهضة أن يتحرَّر من القيود الثقيلة التى كان يتقيَّد بها . تحرَّر من السجع فانطلق وتدفق ، وكان للصحافة أكبر الأثر فى ذلك لأن الأسلوب الصحفى يحتاج إلى السرعة والانطلاق ، كما تحرر من المحسنات البديعية الأخرى ، ومن تكرار الجمل المملة فى المعنى الواحد ، وتخلص بالتدريج من المقدمات الطويلة التى كان يتكلفها الكاتب أمام الموضوع ، كما اتجه الكتاب تدريجيا إلى تقويم المعانى كما قوَّموا الألفاظ بعد أن كانت المعانى فى المرتبة الثانية والألفاظ فى المرتبة الأولى

وتقدم النثر فوق ذلك من ناحية القصد فى المقال إلى معنى واحد محدَّد يولِّده الكاتب ويستوفيه بعد أن كان الكاتب يقدم على الكتابة وليس له معنى محدود ، بل يقبعثر هنا وهناك من غير قصد ومن غير غرض .

ونما كما نمت فكرة التحليل وكان يغلب على الأدب فكرة التركيب كل هذا كان أثراً من أثر الصلة بالثقافة الأجنبية والاطلاع عليها والاستفادة منها وهضمها وتقليدها .

كما تأثر النثر من ناحية الأسلوب فتسرَّب إليه أنماط من الأساليب الأجنبية واستعمال صيَغ لم تكن تُعرف فى اللغة العربية .

وكما كان للثقافة الأجنبية أثر ظاهر فى كل ذلك كان أيضاً للرجوع إلى الكتب العربية القديمة ذات الأسلوب الجيد المرسل أمثال كتب ابن المقفَّع والجاحظ وغيرهما أثر عند بعض الكتاب فى جزالة اللفظ وحسن السبك والاقتراب من نماذج النثر العربى الأصيل .

كما كان للبيئة وأحداثها وما تداول عليها من ظلم ومكافحة للظلم ، واحتلال ومناهضة للاحتلال ومطالبة بالاستقلال ، وسوء حالة اجتماعية ورغبة فى الإصلاح ، أثر فى صبغ النثر بأصباغ جديدة فكثرت الكتابة فى الموضوعات السياسية والاجتماعية ، وأن يدبّ دبيب الحرارة والحماسة فى هذه الموضوعات فيكسبها قوة من حيث المعنى ومن حيث الأسلوب ومن حيث الأدب أيضاً .

وكان من عوامل التقدم فى هذا الباب اطلاع نخبة من المثقفين على ما كتب فى مثل

هذه الموضوعات فى اللغات الأجنبية والتأثر بها ، والاقتباس منها ، و إبرازها فى شكل يتفق والذوق الشرقى والأحاسيس الشرقية .

ونضج التقدم فى دراسة العلوم من طبيعة وكيمياء وقانون وطب وهندسة وفلك وغير ذلك على النثر العربى ، والنثر عادة أكثر تأثراً بهذا من الشعر لقرب النثر من الحقائق ، وقرب الشعر من الخيال ، فكان من أثر ذلك ميل النثر إلى الدقة فى التعبير ، والمنطق فى التحرير ، والصحة فى المهج ، واستخدام كثير من القضايا العلمية فى الأدب .

وعلى كل حال فقد تأثر النثر العربى فى هذا القرن بمؤثرين كبيرين : الثقافة العربية وأظهر ما كان أثرها فى المعانى والموضوعات ، وتسرب بعض الأساليب من الثقافة العربية القديمة وأظهر ما كان أثرها فى الجزالة وحسن السبك و بعض العبارات أيضاً .

وهناك من الكتّاب الأوّل من تأثر بالعامل الأول أكبر أثر ومنهم من تأثر بالعامل الثانى أكبر أثر ولم تخل طائفة من الطائفتين من التأثر بالأخرى إلى مدى قريب أو بعيد .

ثم عامل ثالث وهو ما كانت توحى به البيئة الاجتماعية ومطالبها .

وتتضح نهضة النثر وتقدمه إذا نحن قارنّا بين النتاج الأدبى فى أول القرن التاسع عشر من مثل الكتاب الذى جُمع فيه إنشاء الشيخ حسن العطار (المتوفى ١٢٥٠ هـ — ١٨٣٥ م) المسمّى « إنشاء العطار » ؛ و بين هذا النتاج الأدبى فى أواخر القرن التاسع عشر من مثل ما كان ينشره إبراهيم المويلحى (المتوفى ١٩٠٦ م) فى مجلة «المصباح» وكتابه «ما هنالك»

يقول الشيخ حسن العطار فى رسالة إلى أحد إخوانه :

أمّا بعد ، فإنّ أحسن وشى رَقَمَتْه الأقلام ، وأبهى زَهْر تفتّحت عنه الأكمام ، عاطِرُ سلام يفوح بعبير المحبّة نفحُه ، ويشرق فِي سماء الطروس صبحُه .

سلام كزهر الروض أو نفحة الصّبا أو الراح تُجلى فى يد الرّشأ الألمى

سلامٌ عاطِرُ الأردان ، تحمله الصّبا سارية على الرّند والبان ، إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذى هو عندى بمنزلة العين والفؤاد ، صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان الذى حلّى بها معصمه وجيدَه . . .

ويقول إبراهيم المويلحى فى كتابه (ما هنالك) ينقد موكب الخليفة العثمانى فى صلاة الجمعة (المقالة العاشرة) :

ما قيصر فى موكب انتصاره ، ولا الإسكندر فى يوم افتخاره ، أستغفر الله ! بل ماسعد قادماً من القادسية ، ولا المعتصم قافلا من عمورية أملأ للقلوب مهابةً ولا للعيون بهاء من رؤية جلالة السلطان يوم الجمعة فى موكبه .

فى يوم الجمعة قبل الظهر بساعتين ترد العساكر رجالاً وفرساناً من أطراف الآستانة عشرة آلاف أو يزيدون ، فينتظرون فى طريق السراى السلطانية صدور الإرادة السنيّة بتعيين المسجد . فإذا صدرت اجتمعت العساكر . صفوفا مضاعفة بعضها وراء بعض . وفى هذه الأثناء تتسابق مركبات المشيرين والوزراء والمشايخ والأجانب من السفراء وغيرهم ، فيجلس السفراء ومن كان معهم من علية قومهم الوافدين على الآستانة فى قاعة الجبب الهمايونى المطلة على تلك الساحة التى لا يسمع السامع فيها قيلاً ولا صهيلاً إلاّ صليل الأسياف وترديد الأنفاس هيبة وإجلالا ، وانتظاراً واستقبالاً لإشراق نور الحضرة السلطانية . فإذا حان وقت الصلاة أشرقت المركبة السلطانية المذهبة كالشمس ضياء من مطلع السراى ، والمشيرون وكبار رجال (المابين) حافّون من حول المركبة مشاة خشّع الأبصار ترهقهم ذلة من جلالة تلك العظمة الإمامية ؛ وهم فى غير هذه الساعة أكاسرة الزمان وقياصرة الرومان كبراً وجبروتا وكلهم فى أمواج الملابس الذهبية يسبحون ، وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب . . والنشان عنوان كتبته الدولة ووضعته على صدر حامله شهادة منها للناس ببيان ما هو مكنون وراءه من فضائل الغيرة والحمية ، فإذا اختلف المكتوب على الصدر عن المكنون فى القلب ، كانت كبائع يغش الناس بوضعه على زجاجة الخلّ عنوان ماء الورد . . . . أما المراقبة والمحافظة على المسجد من جهاته الستّ فلا يقدر على وصفها واصف . . ولا يدخل المسجد مصلّ إلا إذا فتشه المراقبون تفتيش اللص سرق فص خاتم . وإن الخطيب ليتجنب فى خطبته كل آية وكل حديث فيه ترغيب فى العدل أو تنفير من الظلم أو إيحاء إلى موعظة من نهى عن منكر أو أمر بمعروف . ولا يدور فى تلك الخطبة من كل جمعة إلاّ حديث واحد اختاروه لبعده عن كل تأويل وهو «إن الله جميل يحبّ الجمال»

فإذا جاء عيد الأضحى استبدلوه بحديث آخر وهو قوله « سمنوا ضحاياكم » وهكذا فى مساجد الآستانة لا يخطب الخطباء إلا بهذين الحديثين .

* * *

وقد قطع النثر هذه المسافة كلها على خطوات ، والمل الذى يمثل الخطوة الأولى رفاعة رافع الطهطاوى ، فقد كان من أكبر عوامل النهضة العلمية والأدبية فى مصر ، سافر إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ ، وعكف على دراسة اللغة الفرنسية ، ولما عاد سنة ١٨٣١ تولى ترجمة الكتب الهندسية والفنون العسكرية ، ثم ترجم جغرافيا « ملطبرون » وأكبر أثر له فى خدمة النهضة ما قام به فى مدرسة الألسن من تعليم كثير من الطلبة الترجمة إلى اللغة العربية ، فقدم هو وتلاميذه للآداب العربية بمعناها الواسع كتباً قيمة فى مختلف العلوم كانت دعامة من الدعائم التى قامت عليها الحركة العلمية . وكان حركة دائبة فى التأليف والترجمة والتدريس ، ألف رحلته إلى فرنسا وسماها « خلاصة الإبريز والديوان النفيس » وفيها نظرات اجتماعية صادقة . كما ألف كتاب « المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » وكتاب « المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين » ، ويُعدّ بحق الخطوة الأولى فى الدعوة إلى تعليم البنات تلتها الخطوة الثانية التى خطاها قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة » .

وألف كتاباً فى تقريب النحو سماه « التحفة المكتبية » وكتاباً سماه « مباهج الألباب » بحث فيه فى آداب العصر وعلومه ، فكان خطوة جديدة فى الابتكار فى التأليف ، وشرح « لامية العرب » وألف « نهاية الإيجاز » فى السيرة النبوية ، إلى غير ذلك من الكتب فى مختلف فروع الثقافة .

هذا إلى عمله الدائب فى الإشراف على ما يترجمه تلاميذه وإصلاحه ، وإرشادهم إلى المنهج القويم فى الترجمة .

فله الفضل على النهضة الحديثة فى تقديم ذخيرة قيمة من الفكر الأوربى ، وتأثره بالثقافة الفرنسية وهضمها ، وإخراجها فى تآليف تتصل بالإصلاح الاجتماعى فى مصر .

والحق أنه أغنى الفكر العربى أكثر مما أغنى الأسلوب الأدبى فقد كان يغلب عليه أثر العصر الماضى فى حبه للسجع والبديع ، وسائر ما قُيّد به النثر القديم . ولكنه تحرّر من

ذلك فى الترجمة بطبيعة الحال . وكان انتقاله فى الأسلوب انتقالاً بطيئاً بحكم التطور . تحلل من بعض القيود وحافظ على بعضها ، ولم يتدفق ولم ينطلق لأن الطبيعة أبت عليه الطفرة .

وقد مات رفاعة الطهطاوى فى عام ١٨٧٣ بعد أن خدم النهضة طول حياته خدمة لا تقدر .

ومن أمثلة نثره هذه القطعة فى حب الوطن :

إن حبّ الوطن من الإيمان ، ومن طبع الأحرار إحرازُ الحنين إلى الأوطان . ومولد الإنسان على الدوام محبوب ، ومنشؤه مألوف له ومرغوب . ولأرضك حرمةُ وطنها ، كما لوالدك حقّ لبنها . والكريم لا يجفو أرضا بها قوابله ، ولا ينسى داراً فيها قبائله . فإنى وإن ألبستنى المحروسة نعما ، ورفعت لى بين أمثالى علما ، وكانت أمّ الوطن العام ، وولية الآلاء والإنعام ، وأحببتها حبًّا جمًّا ، لأنها ولية النعمى ، وقضيت فيها الأربعين مجاوراً «كرام السجايا والبحور الطواميا» فلازلت أشوق إلى وطنى الخصوصى وأتشوف ، وأتطلع إلى أخباره السارّة وأتعرّف ، ولا أساوى بطهطا الخصبة سواها ، فى القيام بالحقوق وإكرام مثواها .

منازل لست أهوى غيرها سُقيتْ   حياً يعُمُّ ، وخُصَّت بالتحيات

وأمنحها زمناً بعد زمن الزيارة ، وأجدّد فيها من هبات الحكومة العمارة ، وأبذل فى محبتها النفيس لتحصيل الأراضى للزرع والغَرْس ، وأفتخر بها كما افتخر عصام بالنفس ، وأنشد قول الحافظ كمال الدين الأدفوىّ :

أحِنّ إلى أرض الصعيد وأهله   ويزداد وجدى حين تبدو قبابها
ونذكرها فى ظلمة الليل مهجتى   فتجرى دموعاً إذ يزيدُ التهابها

* * *

وربما تجلت الخطوة الثانية فى رقىّ النثر فى كتابات عبد الله باشا فكرى والشيخ ناصيف اليازجى . أما عبد الله فكرى فقد كان ، بحق ، خليفة رفاعة الطهطاوى ، لا من حيث الترجمة فقد كان لا يعرف إلاّ العربية والتركية ، ولكن من ناحية أنه كان مركز الحركة الفكرية فى عصره . اتصل بالتعليم حتى كان ناظر (وزير) المعارف المصرية ، وكان اليد اليمنى لعلى باشا مبارك فى تآليفه وأعماله العلمية . وله رحلة وصف فيها سفره إلى أوربا لحضور مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى استكهولم سنة (١٨٨٨) ، ولم يتمها ، ولكن أتمها ابنه

من بعده ، ونشرها سنة (١٨٩٢) . كما أنه ألف كتباً مدرسية مثل (الفصول الفكرية) نقل بها التأليف المدرسى خطوة جديدة . والناظر فى كتابه (الآثار الفكرية) يرى أنه يتأرجح بين الأسلوب القديم فى بعض الموضوعات والأسلوب العصرى فى بعضها . وهذا شأنه أيضاً فى الموضوعات التى اختار الكتابة فيها ، وهو إلى القديم أقرب فى أسلوبه ، وإلى الحديث أقرب فى موضوعاته . ولعلّ ذلك ناشئٌ من أنه نشأ نشأة أزهرية ، وتأدب بآداب العربية القديمة ، ولم يكن له إلى جانب ذلك ثقافة أوربية راسخة ، وإنما نال هذه الزعامة الأدبية فى عصره باستعداده الطبيعى الجيّد و باتّصاله بالأوساط الراقية التى كان يتشرب منها أفكاره الجديدة ويُعمل فيها فكره فينميها و يولّدها .

وقد مات عبد الله فكرى سنة ١٨٨٩ بعد أن أثّر فى النهضة الحديثة أثراً بالغاً .

ومن نماذجه فى الكتابة قوله فى كتاب إلى أحد أصحابه ينقد سيرة بعض المشتغلين بالعلم وطرائقهم فى تعلمه ، وقصورهم عن الإفادة منه (الآثار الفكرية ص : ٢٠٧) .

وسألت عن فلان وفلان ، وهيان بن بيان ، ممن ينتسب للعلم وأهله ، ويتظاهر بشعار فضله ، ولو كان العلم بلحى تعظم وتطول ، وشوارب تحف وتستأصل . . . ثم يتشدق فى الكلام ، وتباله فى المرام . . . ، ثم يقول الإنسان حضرت درس فلان وسمعت من لفظه باللسان ، وقضيت فى العلم كذا وكذا سنة من الزمان ، فهم أعلم من أقلته الغبراء ، وأقله من أظلته الخضراء ، وإن كان للعلم غير هذه الآلات ، فما لهم سوى هذه الحالات ... وعلامة ما بيننا و بينهم أن يؤمر أحدهم برقعة تكتب لحاجة معهودة ، ويمتحن بكتاب غير هذه الكتب المعدودة ... ... وقد صررتُ بالأمس على أحدهم فى الدرس ، يقرأ القطر لابن هشام ، ويلحن لحن العوام ، ومررت بآخر يدرس الكافى فى علمى العروض والقوافى ، يقرّر قوله .

قف على دارهم وابكين بين أطلالها والدّمن

فلا ورّبك ما أقام له وزنا ، ولا عرف له معنًى ، مع سهولة مبناه ، وظهور معناه . . . وقد كانت هذه العرب تتكلم بهذه اللغة العلية على الفطرة الأصلية . . إلى أن اختلطت أنسابهم وتقطعت أسبابهم . . . . وخيف أن تذهب هذه اللغة المنيفة ، التى هى مدار الشريعة

الشريفة ... فقيّض الله لحفظها الأئمة الأعلام ، هداة الأنام . . فصنّفوا تلك الفنون العديدة ، وألفوا هذه الكتب المفيدة ، لتسهيل الأرب من لغة العرب . . واستمر العمل على ذلك إلى أن خلف هذا الخلف الملوم . . فظنوا تلك الوسائل مقاصد ليس بعدها غاية لقاصد ، وحسبوا هذه الكتب تقصد لذاتها ، ويكتفى بالتعبد بكلماتها ، فوقفوا عندها ، ولم يتجاوزوها لما بعدها ، واتخذوا الأدب وراءهم ظهريًّا ، وجعلوا النظم والنثر شيئاً فريا . . وما ينفع الإعراب من لا يعرب عن المرام ، وماذا يعمل بالصرف من لا يتصرف فى أساليب الكلام ، وماذا يغنى العروض عن قوم لا يشعرون ، والمعانى والبيان عن قوم لا ينظمون ولا ينثرون . . .

أما الشيخ ناصيف اليازجى (١٨٠٠ — ١٨٧١) فقد عاش فى بيروت وغلب عليه الأدب وتأثر بما اطّلع عليه من العلوم الغربية وأنماط التعليم الجديدة ، وأكثر من قراءة الآداب العربية والاطلاع عليها ، وقلّدها ، وأخرج من ذلك كلّه نتاجاً فيه مسحة من القديم ومسحة من الجديد . فقد كتب مقامات كثيرة سُمّيت مجمع البحرين حذا فيها حذو مقامات الحريرى ، كما عُنى بتأليف كتب لتلاميذ المدارس نحا فيها نحواً جديداً يقرّبها إلى الأذهان من مثل كتابه « فصل الخطاب فى الصرف والنحو » و « الجمان فى علم البيان » و « نقطة الدائرة » فى العروض إلى كتب أخرى . وهو ، وإن تأثر بالقديم فى أسلوبه فقد تأثر تأثراً شديداً بالميل إلى الوضوح والسهولة فى نثره وشعره .

يقول فى إحدى مقاماته يفاضل بين العلم والمال « المقامة الأربعون : الجدلية » حدّثنا سُهيل بن عبّاد قال : أصابتنى وعكة شديدة ، مدة مديدة ، فانعكفتُ على توفية العلاج ، وتنقية الأعفاج[1] ، من الأمشاج[2] ؛ فلما أمِنتُ مسَّ العُرَواء ... دعانى الملال إلى النزاهة : حتى دخلت يوماً إلى حديقة جميلة ، ذات خميلة ، قد رتعت بها عصابة جليلة . وإذا رجل عليه رداء ، مثل اللواء ، وعلى رأسه عِمامة مثل الغَمامة ، وهو قد أقبل على شيخ أدرد[3] ، وقد التثم حتى صار كالأمرد ، فقال قد علمت أيها الشيخ أن المال زينة الحياة الدنيا ، وعليه نموت ونحيا ، فإنه يقضى لبانة الأولى بالمسرّة ، ويُسهّل طريق الأخرى بالمبرّة ، وعليه مدار العيش ، ونظام الجيش ، وبه قيام الممالك ، وتمهيد المسالك ، ودفع المهالك ، وهو قاضى

(١) الأمعاء . (٢) الأخلاط . (٣) لا أسنان له .

الحاجات ، ورافع الدرجات ، ومستعبد السادات وخارق العادات . . . . ولولاه لتعطلت الأعمال ، وحانت الآجال ، وانقرضت القرون والأجيال .

فانبرى له الشيخ كأويس وقال : لا أفلحت ما غبّ غُبَيْس[1] . ويلك ، إن المرء بالعلم إنسان لا بالمال ، وهو المِرقاة إلى درجات الكمال ، وبه تعلم الحقائق ، وتدرك الدقائق ، ويعرف المخلوق حق الخالق . . وعليه يُنفق الطريف والتالد ، وصاحبه ينال الذكر الخالد ، فكم من الملوك والأغنياء الذين كانت مفاتيحهم تنوء بالعصبة الأقوياء ، وقد درس ذكرهم وبقي ذكر العلماء ، وحسبك أن العلم لا يناله إلا أفاضل الرجال ، وينجّي صاحبه من الأهوال . فلما سمع القوم ما دار بين الرجلين ، قالوا للشيخ نرى صاحبك قد أخذ طريق المُنْتَلِين[2] وإنا لنراه من الأغنياء والأغبياء ، فإنه لا يعرف منزلة العلم والعلماء . فاستشاط الرجل غضباً ، وقال عش رجباً ، تر عجباً ، كيف يتأتّى المراء بين اثنين ، وقد وضح الصُبح لذى عينين . . تبّاً لعلمك أيها الشيخ الناهل ، الذى بنوه كاليتامى وزوجته كالعاهل[3] ، وماذا ترى علمك إذا كنت تشتهى فومةً من الشَدام[4] . أنا كل القضيم[5] إذا طويت ، وتابَس القرطاس إذا عَريت ، كان للعلم دولة عند أنماط الكرام ، الذين عندهم لكل مقل مقام ، وأما فى هذا الزمان فإنّ المال هو الرهص[6] الذى يُبنى عليه ، والركن الذى لا يُلتفت إلاّ إليه ، فهم يحرمون الأديب ، ولا يحترمون اللبيب ، ويصرمون الفقيه ، ولا يُكرمون النبيه ... فخفّض عنك ما أنت فيه ، ولا تتخلق بأخلاق السفيه ثم أنشد .

قد عرف الشيخُ علوم الورى   لكنّ هذا العلم[7] لم يدره
فليته أدرك هذا ولم   يدرك بواقى العلم فى عمره

فانكفأ الشيخ بذلة الخائب ، وقال مع الخواطئ سهم صائب . فأنف القوم من ذلك الشجار ، وشعروا بما مسّهم من نار الشنار ، فنفحه كل واحد بدينار ... قال سهيل : وكان

---

(١) أى طول الزمن .
(٢) طريق مضل فى بلاد العرب . وهو مثل يضرب للرجل إذا ضل .
(٣) المرأة لا زوج لها .
(٤) الفومة : قدر ما تحمل بين إصبعيك . والشدام : الملح .
(٥) الجلد الأبيض يكتب عليه .   (٦) أسفل الحائط .
(٧) أى العلم الذى ينتفع به .

الزحام قد حال بيني و بينهما ، فلم أملك أن أتبين عينهما ، فرصدتهما ارتقابا حتى لقيتهما نقابا . وإذا هما شيخا الميمون وغلامه رجب ، فكدت أصفّق من العجب . فأمرني الشيخ بالقعود ، وقال انتظرنا إلى أن نعود . فكنت كمنتظر القارظين[1] ، ولم أظفر لهما بأثر ولا عين .

* * *

وربما مثل الخطوة الثالثة من خطى النثر الشيخ محمد عبده (١٨٥٣ — ١٩٠٥) ، في إنتاجه العلمي والأدبي الأخير من مثل مقالاته التي كانت تنشر في مجلة (المنار) ، وفي ردّه على (هانوتو) . وفي كتابه (الإسلام والنصرانية) كما يمثل هذه الخطوة أيضاً أديب إسحاق .

أما الشيخ محمد عبده فكتاباته متأثرة بنزعته القوية نحو « الإصلاح الديني » ، وقد تجلّت فيه هذه النزعة منذ أن كان طالباً في الأزهر ، وقويت على أثر اتصاله بالشيخ حسن الطويل أولا ثم بجمال الدين الأفغاني ثانيا — ولمّا اتصل بجمال الدين وُجدت عنده النزعة السياسية والوطنية بمعناها الواسع الذي يشمل العالم الإسلامي كله .

والناظر في أسلوبه يرى أنه متأثر بالقديم في أول أمره حين كان ينشر مقالاته في الوقائع والأهرام فلما نُفي إثر حوادث عرابي باشا وجاء بيروت اتصل بالكتب الأدبية ونشرها بعد أن شرحها مثل مقامات بديع الزمان الهمذاني ونهج البلاغة ، ويظهر أن نهج البلاغة أثر فيه أثراً كبيراً ، وطبع في ذهنه أساليب قوية جزلة . ثم لما اتصل بجمال الدين الأفغاني وحرّر معه مجلة العروة الوثقى تدفّق أسلوبه كما تقتضيه الكتابة الصحفية ، وتحرّر من السجع تحرراً واسعاً . ولما عاد إلى مصر بدأ يتعلم الفرنسية ويقرأ كتبها ويطّلع على ثقافتها ، وطريقة معالجتها للموضوعات ، كما اطلع من كتب البلاغة القديمة على كتابي « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » وعُني بنشرها — وهما كتابان لهما أسلوب جزل وتعبير قوي وإرشاد إلى مواقع الحسن في الكلام وتربية الذوق الأدبي — كل هذا أثر في أسلوبه ، وجعل له خاصة القوة والوضوح والتدفق ، حتى لتحس وأنت تقرأ أسلوبه القديم وأسلوبه الجديد ، أنك تقرأ لكاتبين مختلفين تمام الاختلاف .

وعلى الجملة فقد نقل الشيخ محمد عبده النثر في أيامه نقلةً جديدة بكتاباته من ناحية ، وبهذه المدرسة التي كونها من طائفة من ناحية أخرى ، فقد كان هؤلاء الطلبة يأخذون

(١) رجلان خرجا بجبيان القرظ ثم لم يعودا فيئس منهما قومهما وكانا مضرب المثل .

عنه وعن كتبه ومقالاته ويقلدونه ويتشربون روحه وأسلوبه وأدبه .

وقد مات الشيخ محمد عبده فى عام ١٩٠٥ .

ومن أمثلة نثره هذه المقتطفات من رده على (هانوتو) :

إن كان المسلمون اليوم ينتفعون بشىء ، ويعتبرون بمثال ، لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء فى كلام مسيو هانوتو ، فقد أرشدهم إلى عيوب فيهم لا يسعهم إنكارها ، وهداهم إلى مقاصد لطلاب الاستعمار فى ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها ، وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة فى معاملة الدول ضرب من الخيال ، وعقد الآمال بإنصاف الأمم تلمس للمحال ، وما على المهتم بحماية ذماره ، وطالب الظهر من عاره ، إلاّ أن يدركهم ويعمل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوقهم فى القوة ، أو يكون مثلهم فيتعاوض فى المنافع معهم معاوضة المالك مع المالك ، لا أن يتسلى بالأعاليل ، ويلهو بالأضاليل ، ويقنع بالأمانى ؛ ويكتفى من العمل بالصوت الجهورى واللفظ الطلىّ ، وهو من روح قتله خلى ، حتى إذا دهموه وهو فى غفلته ، وأخذوه فى نومه أو يقظته ، بسط يده يلتمس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليه سيب العدل عنهم ، فهذا عمل الجاهل الأحمق ، وهو بالذلة والاستعباد أحق .

وهى نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبى منه ، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد قال لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة « حاربهم بمثل ما يحاربونك به ، السيف بالسيف والرمح بالرمح » .

ولا يخفى أن كلّ نزاع فهو حرب ، وكلّ منافسة فيما هو عماد الحياة فهى جلاد وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد ، وكلّ وسيلة تظفره بطلبته فهى سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها او استخلصها منه فهى غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة .

فالظافر فى ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد ، فإذا قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسهل على كل منهما أن يرتفق ، وإلاّ استحال الاتفاق ، واستبد القوى بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله فى عالم الأحياء .

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا فى قوله (العدل تكافؤ القوى) .

صرّح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد أن كانت لا تشتغل إلا بما يجرى فيها اندفعت إلى الاستعمار ، ولا يردها عنه إلا قوة الأمم التى تريد الاستعمار فيها وضرب المثل باليابان فإنها بما ارتقت فى المدنية .. قد آذنت أوربا بقوتها ، وحملها على الإقرار بمكانتها .. وهو قول حق كان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله فى كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ..

.. وقد تألفت قوى الأمم الأوربية من عناصر هى العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين فى جملة عناصر القوة لأن مسيو هانوتو لا ينكر أن أوربا تعتمد على الدين فى سياسة الاستعمار ، وأن المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها فى إعداد الشعوب إلى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه إليها وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ما ينقض به ذلك السلطان متى أظلهم ، وفى فتح المغالق التى لا يستطيع السلاح وحده أن يفتحها ، وتمهيد السبل التى لا يمكن لساعد الجندى وحده أن يمهدها .

أمّا أديب اسحق ، فقد كان دمشقى الأصل ، ولد بها سنة ١٨٥٦ ، وانتقل إلى بيروت ومصر ، واتصل بجمال الدين الأفغانى ، وحرر فى الصحف . وبعد مجيئه مصر واتصاله بالسيد جمال الدين ، أنشأ جريدة « مصر » ، فلفت إليه الأنظار وقدّر الأدباء أسلوبه تقديراً حسناً ، وخافت الحكومة من تأثيرها فأقفلتها ، فذهب إلى باريس وأصدرها هناك وسماها « مصر القاهرة » ، وقد مات شابا فى التاسعة والعشرين من عمره (١٨٨٥) وكان فى كتابته نصير الشورى والحكم النيابى ، والمدافعة عن حقوق الشعب .

وإذا كان أسلوب الشيخ محمد عبده متأثراً بالأدب العربى القديم فى أزهى عصوره ، ودعوته إلى الإصلاح مصبوغة بالصبغة الدينية فإن أديب إسحق المعاصر له كان متأثراً بالتعاليم الأوربية الجديدة ، داعياً إلى تقليد الأوربيين فى نظم الحكم ، وكان أسلوبه أيضاً متأثراً بالأدب الأوربى ، حاراً كشبابه ، ملتهباً من وطنيته . وقد جمعت طائفة من مقالاته فى كتاب اسمه (الدرر) .

ومن أمثلة نثره قوله يهاجم الاستبداد .

لقد عرف الناس الآن شرور الاستبداد ، وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضا به ، وصار الأمر شورى عند جميع الدول المتمدنة إلا الروسيا ، وذلك إن صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقاً بدولة متمدنة . إن ثورة فرنسا برزت إلى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ، ودفعت سطوة التقليد فضعضعتها ، ورفعت عن العيون نقابها ، وعن النفوس حجابها ، فآنست من جانبها نور الحرية ، وخلعت جلابيب الرق والعبودية ، فتصدى لها أعوان الرق وأنصار العبودية وما آلوا فى قتالها جهداً ، فلقيتهم وهى ترى الموت فى الحرية حياة ، والحياة فى الرق موتا ، فلم يبلغوا منها قصداً ، ورسخت فى عالم الوجود قدمها ، وأدهشت الدنيا بشدة حولها .. » .

ومن ذلك هذه المحاورة التى دارت بينه و بين رياض باشا حول الحكم النيابى .

« زرت رياض باشا على عهد الوزارة الأجنبية فى ديوان الداخلية ، فقابلته خارجا من الغرفة فجلسنا على مقعد الباب ، فقال : كيف ترون الحال ؟ قلت رأى الوزير أوسع . قال : وما الذى يبلغكم من أخبار الريف ؟ قلت : إن الناس أملوا كثيراً ولم ينالوا شيئا فأوشكوا أن يعودوا إلى اليأس بعد الرجاء ، والوزير يعلم أن النكسة شر من الداء ، فقال بازدراء : فليرجعوا إلى حالة الخسف ، ويعانوا عذاب الظلم . قلت : إنهم لا يرومون ذلك ، ولكن يرومون نيل الحرية وتأييد الكلمة الوطنية ؛ فقال متهكما : ألا يرجون مجلس النواب ؟ قلت : لا بدع أن يطلب الشىء من معدنه . فقال : أى معدن فى مثل هذا المجلس ؟ وكيف يرجى له البقاء ، وليس فى مصر من يعلم شيئا من أحوال السياسة الدولية ليصلح أن يكون نائبا ، قلت : إن صحّ هذا الرأى فلا يقضى بحرمان البلاد من نعمة الشورى ، فإن النواب المصريين يستطيعون النظر فى أمورهم الداخلية وأحوالهم الزراعية وما يترتب عليه نفع البلاد ليستجلبوه ، وما ينشأ عنه الضرر ليجتنبوه ، وهم بذلك أحق من غيرهم ، فإن صاحب البيت بالذى فيه أدرى ، فهمهم بكلام لا يفهم وانصرفت » .

* * *

وقد يصحّ أن نقسم النثر الأدبى إلى نوعين ظاهرين : نثر اجتماعى ونثر فنى .

فالنثر الاجتماعى يشمل النثر السياسى ومقالات الصحف السياسية والاجتماعية والكتب المؤلفة فى ذلك .

وهذا القسم كان أكثر تحرراً من السجع وأنواع البديع وسائر المحسنات لأنه يعتمد بطبيعته على مخاطبة جماهير المثقفين واستثارة مشاعرهم وتغذية عقولهم ، ولذلك كان له الفضل الأكبر فى تحول أسلوب الكتابة من كتابة مقيدة إلى كتابة مرسلة .

وقد بدأ هذا فى أول النهضة من تحرير بعض المقالات فى الوقائع المصرية وفى تأليف بعض الكتب التى ألفها أعضاء البعثات من مثل رفاعة الطهطاوى ومدرسته مما كانوا يعرضون من صور اجتماعية طبعها فى نفوسهم ما رأوا أثناء بعثتهم فى أوربا .

ثم قوى هذا النوع من الكتابة على أثر تبرم البلاد من التدخل الأجنبى فى عهد اسماعيل ثم قوى واشتد على أثر الاحتلال الإنجليزى والمطالبة بالاستقلال وشعور نخبة من المفكرين بسوء الحالة الاجتماعية والدعوة إلى الإصلاح .

ومن أعلام الكتاب فى هذا الباب السيد جمال الدين الأفغانى (المتوفى سنة ١٨٩٧) فقد شهد حركة التدخل الأجنبى فى عهد إسماعيل ، وأثار الشعور الوطنى ليصرخ فى وجه الظلم ، ولكن لم يكن قوى الأسلوب الكتابى ، إذ كانت تغلب عليه العجمة ، غير أنه كان ناراً تلتهب يحس كل من اتصل به ويؤثر بحديثه وبروحه فى مجالسه وتلاميذه ، ويدفع كل من له قدرة على الكتابة أن يكتب وأن يجيد الكتابة فخلق مدرسة قوية الروح قوية الأسلوب .

ربما كان هذا ممثلا خير تمثيل فيما أنشأه فى باريس بعد نفيه من مجلة (العروة الوثقى) إذ كان هو روح المجلة والشيخ محمد عبده قلمها وأسلوبها .

وكان من كتاب هذا النوع من النثر الاجتماعى عبد الله نديم وكان له أثر كبير فى كتاباته السياسية والاجتماعية أيام ثورة عرابى ، وبعدها بما كان يخرج من مجلات ذات أسلوب قوى جذاب ، يؤثر فى الخاصة والعامة على حين أن السيد جمال الدين ، وتلميذه الشيخ محمد عبده كانا يؤثران فى الخاصة ، ذلك لأن السيد عبد الله نديم كان يعرض للمسائل السياسية والاجتماعية فيخاطب الخاصة باللغة الفصحى فى أسلوب قريب المنال ، ثم كان يخاطب العامة باللغة العامية أحيانا ، ويقسم مجلته (الأستاذ) إلى قسمين تبعاً لهذا الغرض .

وبعد الاحتلال وُجدت نزعتان مختلفتان فى السياسية والاجتماع : نزعة تميل إلى الإصلاح

التدريجى والميل إلى الحكومة المستبدة العادلة والتدرج بالأمة حتى تنتج أفراداً ممتازين فى الخلق والثقافة ، وإذ ذاك يمكن تكوين حكومة شورية وكان على رأس هذا الحزب رياض باشا وبناصره من الكتاب الشيخ محمد عبده وحزب يرى الإسراع فى تنفيذ النظام النيابى وأنه هو الذى يكوّن الرجال ويسير بهم نحو الكمال ، وكان على رأس هذا الحزب شريف باشا وبناصره من الكتاب أديب إسحق وغيره . كما وجدت فيما بعد أحزاب أخرى لها نزعاتها المختلفة ولكل نزعة كتابها وأدباؤها .

وكان هذا كلّه نعمة على الأدب السياسى والاجتماعى إذ أجرى أقلام الكتاب وألهب عواطفهم وجعل كتاباتهم حارة متدفقة ، فتوفر طائفة منهم على دراسة الحياة الاجتماعية : ينتقدون حالة المجتمع ويدعون إلى الإصلاح من مثل مقلات النديم والشيخ محمد عبده والمويلحى وقاسم أمين : ثم جاء الشيخ على يوسف ومصطفى كامل وأمثالهما ، فتقدما ، فى صحفهما ونتاجهما ، بالكتابة الاجتماعية والسياسية خطوات إلى الأمام .

وقد كان الشيخ على يوسف أكبر صحفى مصرى ، أسّس فى جريدته «المؤيد» مدرسة وطنية إسلامية ، سدّت حاجة المصريين إلى جريدة وطنية تناهض الاحتلال ، وإسلامية تغذّى العواطف الإسلامية وتستجيب لها فى سائر الأقطار العربية ، وحازتْ جريدته من الشهرة والنفوذ والسعة ما لم تحزه جريدة أخرى فى عصره ، والتفّ حولها كثير من الكتاب يغذُّونها بأقلامهم ومشاعرهم .

وقد مات سنة (١٩١٣) بعد أن خدم بقلمه الأدب والعاطفة الوطنية والشعور الإسلامى خدمةً كبرى .

وكان له أسلوب سيّال ، متدفّق ، قويّ ، يتحيّن فرص الأزمات الدينية والسياسية فيجرى فيها قلمه بالروائع ، فهو بحق قد نقل الأسلوب العربى العصرى الحديث نقلة جديدة .

ومن أمثلة نثره هذه القطعة كتبها تحت عنوان « لا تعصب فى مصر » :

« قالوا : إن المصريين متعصّبون تعصباً دينياً ، ومعنى هذا أنهم يكرهون المخالفين لهم فى الدين كراهةً عمياء ، يعتدون عليهم بروح البغضاء المتناهية ، كلما سنحت لهم فرصة الافتراس أو استفزّهم صائح .

فى البلاد من قديم الزمان أديان مختلفة يتجاور أهلوها فى المنازل ، و يتشاركون فى المرافق ، و يتنافسون فى الأعمال ، فلم تكن بين المسلمين والأقباط تلك الروح الشريرة . ولو كانت فى فطرة المسلمين أو فى فطرة الفريقين لاشتد الأكثرية الأقلية فى عصور مضت وخصوصا فى عصور كانت الجهالة فيها سائدة ، وكان بعض الحكام من المماليك وغيرهم يبذرون بذور البغضاء بين الفريقين لا لخدمة دينية إسلامية ، ولكن لأغراض شتى منشؤها الشهوات والمطامع . ولكن التواريخ تدل على أن الفريقين عاشا على الوئام والسلام فى كل الظروف أو أكثرها .

وفد على القطر المصرى منذ أول عهد المرحوم محمد على باشا الكبير وفود من كل الطوائف والأجناس ... كان منهم الموظفون فى كل مصلحة حتى تولى نوبار باشا رئاسة النظار فى مصر ، وكان قائمقام خديوى ، ورئيس الاحتفال بموكب المحمل الشريف ، فهل يوجد فى أمة غير الأمة المصرية المسلمة مثلُ هذا التساهل فيرأس احتفالا دينيا مسيحيا مسلمٌ أو غيرُ مسيحى .

وكان من علمائهم الأساتذةُ والمعلمون ونظار المدارس والمكتشفون ، فهل الأمة التى تربّى أبناءها على أيدى الأساتذة من غير دينها تعدُّ متعصبة ؟ وكان التجار على ما يحبون من الرحب والسَّعة وحسن القبول ، فضربوا فى البلاد بمتاجرهم من غثّ وسمين ، وجيّد ورديء ، وخالص ومغشوش ، حتى صارت مصرُ من أوسع أسواق متاجر أوربا ومعاملها التى وجدت إقبالا من الأمة هائلا .

وهؤلاء بعض الأجانب يُقيمون الأكواخ الصغيرة الحقيرة لبيع الخمور الرديئة فى كلّ قرية من قرى القطر ، مهما سحقت وقل عددها ... حتى يكون الصعلوك ، منهم فى بضع سنوات صاحب القرية ومزارعها ومُداين أهلها وسيّدهم ، فهل هؤلاء هم المتعصبون الذين يُخشى من شرّهم فى وادى النيل على الأوربيين » .

ولما زاد ضغط السلطان عبد الحميد ، وضيّق على الناس حريتهم ، ورماهم بالظلم وسوء الإدارة ، وأخذهم بالظنة والشدة ، كان من الطبيعى أن ينهض الأحرار لمقاومة الطغيان فكان من ذلك كتّاب ينشرون المقالات القوية فى هذا الظلم و يتعرضون للسجن والنفى والقتل .

وعلى الجملة فقد كان من نتيجة هـذا وجود حركة فـكرية وأدبية فى البلاد العربية المحـكومة بالدولة العثمانية ، وفرار كثير من الـكتاب إلى مصر ، يذّرعون بها و يهاجمون السلطان عبد الحميد ونظامه الاستبدادى بمقالات أو كتب أدبية فى غاية من القوة والحرارة كما فعل الشيخ ناصيف اليازجى فى بيروت ، وكما فعل ابراهيم المويلحى فى مصر فى كتابه (ما هنالك) الذى نقد فيه الحـكم التركى دون أن يصرّح باسمه ، وكما فعل السيد عبد الرحمن الـكواكبى فى كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » وكما فعل ولى الدين يكن بعد ذلك فى أوائل القرن العشرين .

أما النثر الفنىّ ، ونعنى به النثر الذى يقصد فيه إلى الصياغة والجمال والموسيقى والإمتاع الفنى أكثر مما يُقصد فيـه إلى نقل الأفـكار ، وتقرير الحقائق — فقد كان رقيه أقل وخطواته أضيق ، ولم يتحرر من سـجعه وبديعه طوال القرن التاسع عشر إلاّ قليلا . وكان أكثر ما يتجلّى فى الإخوانيات ، والمساجلات الأدبية ، والتقدمة لموضوع اجتماعى ونحو ذلك .

وكثيراً ما يكون للأديب لونان : لون يتأنق فيه ويتقيّد بالقيود الرسمية ويتصنّع فيه ويتكلف ويُعمل ذهنه وخياله للمثور على نوع من أنواع البديع ، أو فقرتين يؤلف بينهما سجعة ، ويحتذي فيه حذو الأقدمين من الـكتاب أمثال بديع الزمان والحريرى — ولون يترسّل فيه ويتحرر من القيود إذا عرض لموضوع اجتماعى أو سياسى كما فعل محمد المويلحى فى حديث عيسى بن هشام ، وكما نرى فى كثير من المقالات التى كُتبت فى هذا العصر .

وقد قلّ هذا الأدب بطغيان الأدب الاجتماعى والسياسى عليه وبحكم أن الناس رأوه ضرباً من ضروب الـكمال ورأوا المقالات السـياسية والاجتماعية حاجة من حاجات الغذاء العقلى والعاطفى .

ويُعدّ عبدالله باشا فـكرى مثلاً من أدباء النثر الفنى فى بعض مقالاته وخاصة إخوانياته ومداعباته . ومن هذه الأمثلة ما كان من المساجلات بين الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى وشكيب أرسلان . كما أنّ من هذا النوع المقامات التى قُلّد فيها الأقدمون مثل مقامات الشيخ ناصيف اليازجى (مجمع البحرين) .

ومما يلاحظ أن النثر السياسى والاجتماعى كان أكثر تأثراً فى ترسله ومعانيه بالأدب الغربى وإن اتخذ موضوعاته من البيئة الشرقية . أما الأدب الفنى فأكثر تأثراً بالأدب العربى القديم فى أسلوبه وقيوده .

وهناك أديبان كبيران امتازا بناحيتهما الأدبية الفنية كما امتازا بناحيتهما اللغوية وبسعة الاطلاع ، وقوة النقد ، فأثرا فى الأدب العربى فى القرن التاسع عشر أثراً كبيراً ، وهما أحمد فارس الشدياق ، وابراهيم اليازجى .

فأما أحمد فارس الشدياق فقد كان لبنانى الأصل : كان نصرانيا ، واتصل ببای تونس فأسلم ، ورحل إلى أوربة ، واستفاد من رحلته فيها . وكان واسع الاطلاع فى اللغة يدل على على ذلك كتبه : الساق على الساق فيما هو الفارياق ، والجاسوس على القاموس ، وسرّ الليال فى القلب والإبدال .

وخدم الصحافة بإنشائه جريدة الجوائب فى الآستانة باللغة العربية ، كما كان له فضل كبير فى اختيار مصطلحات لكلمات أجنبية لا تزال تستعمل إلى اليوم .

وأنشأ بجانب جريدة الجوائب مطبعةً كان لها الفضل أيضاً فى نشر كتب عربية قيمة من الكتب الأدبية القديمة التى عثر عليها فى مكاتب الآستانة .

ويُعدّ الشدياق بحق من أعلام الأدب بما كتب من مقالات أدبية وبما نقد من أحوال اجتماعية ، وبما نبّه إليه من أخطاء لغوية ، وبما نشر من كتب قيمة .

ولم يتحرر الشدياق فى أسلوبه من قيود العصر القديم من التزام السجع أحيانا ، وتكلّف أنواع البديع أحيانا ، ولكنه كان غزير المعانى ، واسع الأفق ، تعرّض لموضوعات قلما تعرّض لها مَنْ قبله ، من وصف لمشاهد اجتماعية فى البلاد الشرقية والغربية ، مع الفكاهة الحلوة والنقد اللاذع ، وإن كان يؤخذ عليه فيها التبذل أحيانا إلى ما يترفّع عنه الأديب العفّ .

وأسلوبه أميل إلى الإطناب ، مملوء بالفكاهة ، كثير المترادفات ، عنيف فى النقد .

وقد مات فى عام ١٨٨٧ بعد أن عُمّر طويلا ، وبعد أن أغنى اللغة العربية ، بما بعث من كلمات ، وخلق من مصطلحات ، ونشر من كتب ، وأحيا من نقد .

ومن أمثلة نثره القطعة التالية تصف مصر (الساق على الساق ، الفصل السابع ٢٠٣)

« بلد الخير ومعدن الفضل والكرم ، أهلها ذوو لطف وأدب وإحسان إلى الغريب ، وفى كلامهم من الرقة ما يغنى الحزين عن التطريب ، إذا حيوك فقد أحيوك ، وإن سلموا عليك فقد سلّموك ، وإن زاروك زادوك شوقاً إلى رؤيتهم ، وإن زرتهم فسحوا لك صدورهم فضلا عن مجالسهم ، أما علومها فإن مدحهم قد انتشر فى الآفاق ، وفات فخر من سواهم وفاق ، بهم من لين الجانب ورقة الطبع وخفض الجناح وبشاشة الوجه مالا يمكن المبالغة فى إطرائه . . . وكلامهم فصيح اللهجة ، بيّن الكلام ، سريع الجواب ، حلو المفاكهة والمطارحة ، وأكثرهم يميل إلى هذا النوع الذى يسمونه الانفاط وكأنه المحارزة وهى مفاكهة تشبه السباب وهو أشبه بالأحاجى فإن لم يكن قد تدرّب فيه لا يمكنه أن يفهم منه شيئاً وإن يكن شاعراً . وكلهم يحب السماع واللهو والخلاعة وغناؤهم أشجى ما يكون فلا يمكن لمن ألفه أن يطرب بغيره ، وكذلك آلاتهم فإنها تكاد تنطق عن العارف بها ، وأعظمها عندهم هو العود ، وقلّ اعتناؤهم بالناى ، ولهم فى ضرب العود طرق وفنون تكاد تكون من المغيّبات ، غير أنى أذمّ من غنائهم شيئاً واحدا ، وهو تكرير لفظة واحدة من بيت أو موّال ، مراراً متعددة حتى يفقد السامع لذة معنى الكلام ، ولكن أكثر ما يكون ذلك من المتطاولين على الفن ، وبعكس ذلك طريقة أهل تونس فإن غناءهم أشبه بالترتيل ، وهم يزعمون أنها كانت طريقة العرب فى الأندلس . . . »

وربما خلفه فى بابه ابراهيم اليازجى وهو لبنانى الأصل عاش من سنة (١٨٤٧ — ١٩٠٦) وهو ابن الشيخ ناصيف اليازجى الأديب المشهور الذى تقدم ذكره ، مال إلى الصحافة أول أمره فكتب فى جريدة الصباح فى بيروت ، وعلّم البيان وآداب اللغة العربية فى إحدى مدارسها ، ثم تحول إلى مصر ، وأنشأ بها مجلة البيان .

وكان مثقفاً ثقافة واسعة فى اللغة العربية والفرنسية وكان يعرف العبرية والسريانية .

وعرف بكثرة التحرّى والتدقيق فيما يكتب ويبحث ، لا يرضى أن يُخرج شيئاً للناس من آثاره حتى يُطيل النظر فيه ويُجيل يده فى إصلاحه وتعديله مراراً ولذلك قلّ إنتاجه إذا قيس بمجهوده ومدة اشتغاله .

وقد شارك أحمد فارس الشدياق فى كثير من صفاته من اتساع فى معرفة اللغة العربية وآدابها ونقد للتعبيرات والأساليب الشائعة فى زمنهما وتوجيه الكتاب والأدباء إلى أن يتقنوا ما ينشئون ، ويجوّدوا ما يكتبون ؛ كما اشترك بوضع كثير من المصطلحات اللغوية .

وقد شاء القدر أن يتساجل الرجلان ، حين نقد أحمد فارس الشدياق أباه الشيخ ناصيف اليازجى عقب وفاته ، فاضطر إبراهيم للدفاع عن أبيه وقد كان أحمد فارس الشدياق إذ ذاك نيّف على السبعين ، وكان إبراهيم اليازجى شابا ، ولعلّ هذا هو ما وجهه إلى التزوّد من اللغة وحذوه حذو أحمد فارس الشدياق فى الميل إلى النقد مع كثرة البحث وسعة الاطلاع .

وأخرج اليازجى كتباً تتجلّى فيها مواهبه واتجاهاته ، فله كتاب لغة الجرائد نقد فيه الأساليب والألفاظ التى يكثر استعمالها فى الجرائد والمجلات مما لا يتفق وفصيح اللغة .

وله نجعة الرائد فى المترادف والمتوارد ، أخرج منه جزئين و بقى الثالث بناه على الإنسان وصفاته ، وما يتصل به ، يذكر فى كلّ فصل الجمل المختارة والألفاظ المنتقاة التى تستعمل فى المعنى الواحد على نحو أوسع مما فعل صاحب الألفاظ الكتابية ، وما فعله الحصرى فى فصول من كتاب زهر الآداب .

كما نشر نقداً له على محيط المحيط للبستانى . وألف شرحاً جميلا لديوان المتنبى كان بدأه أبوه من قبله بتعليقات على الأبيات ، وهو شرح تتجلّى فيه مواهب اليازجى من دقة وتركيز ، وأداء للمعنى من غير إكثار .

وهو كسائر كتّاب عصره لم يتحرر من السجع فى كتاباته الأدبية ، أما مقالاته فى البحوث اللغوية ونحوها فقد تحرر فيها من السجع غالباً لطبيعة الموضوع .

وهو يميل إلى تقليد الأقدمين فى تحرّيه لرصانة العبارة ، وحسن السبك ، والدقة فى اختيار اللفظ ، ويتحد مع الشدياق فى ميله إلى الإطناب فى مقالاته النقدية وإن لم يبلغ فى ذلك مبلغه ، ويخالفه فى غلبة الجدّ عليه ، وقلّة الفكاهة والمزاح .

ومن أمثلة مقالاته هذه القطعة التى كتبها عن (الجرائد فى القطر المصرى) فى مفتتح السنة الأولى من مجلته الضياء (١٨٩٨ — ١٨٩٩) .

« من ورد الديار المصرية فى هذه الأيام ورأى أن فى القاهرة وحدها ماينيف على خمسين جريدة بين يومية وأسبوعية وشهرية ، ثم قابل بين حالها اليوم وما كانت عليه من زُهاء عشرين سنة حين لم يكن فيها إلا جريدة واحدة هى الجريدة الرسمية ، تبيّن المسافة التى جازها هذا القطر فى هذه المدة اليسيرة وما حدث فى نفوس أهله من النهضة الأدبية ...

بيد أنك إذا تفقدت تلك الجرائد وجدت أكثرها بعيداً عن المنزع الذى تقتضيه حالة القطر غير متلق تلك النهضة بما يرفع الأمة من كبوتها . . لأن أكثرها لاحظة لها إلا أحاديث السياسة ومزاعم أربابها تتلو على القراء فى هذا القطر ما يُتحدّث به فى مجالس لندرا وبرلين وما يتخرّص به سياسيو باريز و بطرسبرج ... مما لا يهمّ المصرى فى حالته الحاضرة الوقوف على شىء منه . . فضلا عن أن هذه المباحث إنما هى من غايات المدنية لا من مبادئها ، و إنما تتلقاها الأمة بعد أن تستوفى قسطها من ضروريات العلم وتستعد لفهم ما يُلقى اليها من ذلك بعد معرفة المقدمات التى تفيد تصوّره . . ويا ليت شعرى ما الذى يقع فى ذهن العامى من مكاشفته بأسرار الممالك ، وهو لم يسمع من أمر تلك الممالك إلا بأسمائها ولم يقف على شىء من تواريخها وسائر أحوالها ، وكيف يستطيع أن يتمثل وقائع حرب بين أمّتين وهو لا يعلم موقع بلادها من الأرض ؟ . .

ثم على تسليم أن ذلك كله سائغ وأن المقصود به الفئة المتنوّرة من الأمة وهى أقل من القليل فما الداعى إلى وجود عشرات من الجرائد تكرر الخبر الواحد مع وحدة المشتركين فى أكثرها ؟ . . وكثيراً ما يكون ذلك الخبر بالعبارة الواحدة لأنه فى جميعهن معرّب عن جرائد الأجانب حتى مايتعلق بسياسة القطر نفسه . وهذه أخبار النظارات وهى بين ظهرانى كتابنا لا يكادون يتعلقون بالنبأ التافه منها إلا استراقاً واستشفافاً من وراء حجاب ؛ وهذه أخبار مواقع السودان وهى متصلة بمصر وفيها جيش مصر وأموالها تتناولها جرائدنا عن جرائد انكلترا وغيرها فلا تصل إلا بعد أن تقطع البرّ وتخوض البحر وتأتيها عن طريق هو أبعد من السودان بمراحل .

ثم أين نصيب العامىّ من تلك الجرائد وعليه أكثر رواجها . . وهل يكتفى منها بما تسرده بعد ذلك من خبر زفاف أو نعى وما يقع من قتل أو سرقة ، وما يتوخاه الكاتب

أو المكاتب من إطراء بعض ذوى الشأن لغرض فى النفس أو الوشاية ببعض المستخدمين . . أو ما أولع به بعض تلك الجرائد من نفث سموم التعصب والشقاق . . أين الكلام فيما ينمى ثروة البلاد .. ومتى رأينا فيها حضاً على إحياء الصنائع .. ثم أين الفصول المطوّلة فى تهذيب أخلاق العامة و إصلاح آدابها ؟ . .

ومعلوم أن الجرائد تثبت تأثيراً فى نفوس قرائها ، لأنها الجليس الدائم والمشير الملازم ، يقرأها الرجل فى ناديه ، ويأنس بها فى خلوته ، ويختلف عليها فى أوقات فراغه ، ويتكرر عليه حديثها فى كل يوم ، حتى تطبع حروفها فى مخيّلته ، وترتسم ألفاظها على أسلة لسانه ؛ فإذا تكلم نطق بما تتلو عليه ، و إذا تناجت خواطره لم يمرّ بها إلا ماتلقن من أقوالها ، إلى أن تنقش خطتها فى صفحة اعتقاده ويسترسل اليها برأيه وهواه ، ولا سيما إذا لم يسبق اليه من العلم ما يزاحم آراءها ، ولم يكن بين يديه ما ينصرف إلى تلاوته دونها بحيث تكون هى المورد الوحيد الذى تستمد منه بصيرته ، فإن مايرد عليه منها يمتزج بأجزاء نفسه و يرسخ فيه رسوخ طباعه حتى يصير من الضروريات التى لاتقبل الزوال ولا تعترضها الشبهات » .

* * *

و إلى جانب هذا وُلد فن الخطابة فى هذا القرن وارتقى ، وقد كانت الخطابة قبل ذلك ميِّتةً أو شبه ميتة لفقدان الحرية ، وخمود الوعى القومى . والخطابة السياسية لا تنهض إلا بهذين العنصرين : قَدر من الحرية يستطيع به الخطيب أن يعبّر عن آرائه ، ويقظة شعور تدفعه للتفريج عن نفسه بالقول ، ومجاوبة للسامعين فى هذا الشعور .

وقد كانت الحرية مخنوقة لا يستطيع قائل أن يقول و إلا تعرّض للسجن والنفى والموت ، وكان الشعور القومى قد جمد إلى درجة بعيدة فلا يفكر مفكّر إلا فى نفسه ! وكيف يعيش ، وكيف يتقى الشر ، أما التفكير فى الوطن فمنزلة لم يبلغها .

قال الشيخ محمد عبده : « إن أهالى قبل سنة ١٨٩٣ كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكا لحكامهم الأعلى ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم يتصرّف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يُبديه فى إدارة بلاده أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من

الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم و بين الحكومة سوى أنهم مصرّفون فيما تكلّفهم الحكومة به وتضربهم عليه . وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوربية ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلّم فيها من عهد محمد على باشا الكبير إلى ذلك التاريخ ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ماجاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد على باشا وإبراهيم باشا ، لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار » .

فلما أنشأ إسماعيل باشا مجلس الشورى فى سنة ١٢٨٣ بدأ الناس يشعرون بشىء من الحرية و إن كان شعوراً ضعيفاً يساوره خوف وتردد حتى إذا تدخل الأجانب فى مصر على أثر سوء الحالة المالية أخذ الناس يتذمرون ، وأخذ وعيهم القومى فى التكوّن ، وساعد على ذلك شعور الخديوى إسماعيل باشا نفسه بضرورة إبداء الناس آراءهم وتذمرهم ، و إذ ذاك ظهر جمال الدين الأفغانى فكان أول خطيب من نوعه : يبلور شعور الناس و يستحثّهم للعمل ، وكسب الحقوق ، ورفع الظلم ، والمطالبة بالعدل ، فكان يجلس وحوله الناس فى المقهى أو فى بيت من بيوت الخاصة ، ويتحدث حديثاً هو أشبه مايكون بخطابة فى جمع صغير ، وأحيانا يخطب فى الجماهير ، وقد سمعه من حدّث عنه أنه كان يخطب سنة ١٨٧٨ فى العامة ويقول لهم مامعناه : « إنكم معشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجْر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة إلى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتئنون من وطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم — التى تجمعت بما يتحلّب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط وأنتم صامتون ، فلو كان فى عروقكم دم فيه كريّات حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة . تتداولكم أيدى الرعاة ، ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه . وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حسّ لها ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهيا كل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون

دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم ، وعزة أجدادكم . هبّوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء » .

وقد ربّى فى مصر طبقة تتلمذه وتحاكيه .

ثم خلفه فى النبوغ فى الخطابة عبد الله نديم ؛ كان خطيباً شعبيا ، وكان زلق اللسان ، عارفاً بنفسية الجماهير ، قديراً على التأثير . بدأ حياته الخطابية مذ كان يعلّم الإنشاء والأدب فى مدرسة الجمعية الخيرية فى الإسكندرية ، فكان يعلّم تلاميذ المدرسة الخطابة ؛ ثم كان يخطب فى المحافل ، وقد كثرت فى أول عهد توفيق سنة ١٨٨٢ حينما أعلن الدستور ، فسرت فى النفوس هزة فرح ، وأمّل الناس أنّ الحكم النيابى سيُصلح كل مفاسد الماضى ، فكان عبد الله نديم يخطب فى الجماهير . من ذلك مثلا أن جمعية المقاصد أقامت حفلة للاحتفال بهذا الدستور فافتتحها عبد الله نديم ، وتلاه إبراهيم اللقانى فبيّن الفرق بين عهد الاستبداد وعهد الشورى ، فأعقبه النديم فى الكلام فى هذا الموضوع ، ثم قام الشاب مصطفى ماهر (الذى صار مصطفى باشا ماهر فيما بعد) ، فتكلم فى الحث على الاجتهاد فى العلوم والفنون ، وأثار الأغنياء حول فكرة إنشاء بنك أهلى يحمى الأهالى من استغلال المرابين ؛ وختم ذلك بالدعوة إلى الألفة والاتحاد . فقام النديم بعده يخطب فى هذا الموضوع أيضاً . ثم قام الشيخ محمد عبده فبيّن مزايا الحكم النيابى ، وطالب أن يكون النوّاب من المتعلمين ، وحثّ على تعميم التعليم ، وعلى احترام حرية القول والكتابة ، وسنّ القوانين المبيّنة لحقوق الأفراد ، فأعقبه عبدالله نديم يخطب فى هذا الموضوع أيضاً . ثم قام فتح الله افندى صبرى (وهو فتحى باشا زغلول فيما بعد) ، فخطب فى الحث على الاتحاد والثبات .

ثم لما كانت الثورة العرابية ، تحوّلت خطب عبد الله نديم إلى التحريض على الثورة وتأييد عرابى ، فكان يخطب فى كل مجتمع : فى الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفى حفلات الأفراح ، حتى كان إذا سئل محمد عثمان المغنّى أين تغنّى الليلة ، قال فى بيت فلان مع عبد الله النديم .

كان عبد الله نديم إذن لسان الأمة فى عهده بخطبه إذا خطب ، وبقلمه فى الصحافة إذا كتب .

ثم خلفه مصطفى كامل (المتوفى سنة ١٩٠٨) ، فكان الخطيب البارع فى مناهضة الاحتلال الانكليزى فدعا إلى مصر وحريتها ، يخطب فى مصر بالعربية ، وفى فرنسا بالفرنسية ، ويتنقل فى البلاد يثير الحمية ، ويشعل نار الوطنية ، ويبعث فى النفوس الشعور بالكرامة القومية .

وكان مصطفى كامل حلو الصوت ، جيِّد النبرات ، متدفق البيان ، فأثّر فى النفوس أثراً بالغاً .

ثم كان لتنظيم القضاء فى مصر ، وإنشاء المحاكم الأهلية ، ونظام المرافعات ، أثر كبير فى نهضة الخطابة القضائية ، بل والسياسية أيضاً . فنظام القضاء أعلى من شأن المحاماة . ولهذا نشأ محامون بارعون فى المرافعة ، وكان منهم خطباء قضائيون فى المنزلة الأولى مثل إبراهيم المقانى ، وعمر لطفى ، وإبراهيم الهلباوى وغيرهم ؛ كما أن كثيراً من هؤلاء المحامين اشتغلوا بالحركة السياسية فكانوا خطباء سياسيين بجانب أنهم خطباء قضائيون .

* * *

حـ — القصة

لم يكن ينظر إلى القصص فى أول هذا القرن على أنه أدب رفيع إلا ما كان من المقامات وأمثالها ، حتى إن ألف ليلة وليلة وقصة عنترة وأمثالها من القصص الأخرى كان يرى فيها الأدباء أنها أدب شعبى وضيع . ولم تقدّر ألف ليلة وليلة فى الأدب العربى إلا بعد أن قدّرها الأوربيون ، وإنما علا شأن القصة بعد أن احتك الشرق بالغرب ورأى المتأدبون أنها تحل فى الأدب الغربى أعلى منزلة ؛ ولذلك بدأ الأدباء فى هذا القرن يترجمون عن الأدب الغربى بعض القصص كما فعل محمد عثمان جلال فى مصر إذ ترجم أربع روايات فرنسية عن راسين ونشرها فى كتاب سماه « الروايات المفيدة فى علم التراجيدة » وترجم أربع روايات أخرى عن موليير فى كتاب سماه « الأربع روايات من نخب التياترويات » وكما ترجم قصص لافونتين فى العيون اليواقظ .

وكذلك ترجم اللبنانيون عن الإنجليزية والفرنسية بعض الروايات ، ومن أشهرهم فى

ذلك سليم البستانى ، ونقولا رزق الله ، ونقولا الحداد .

وكانت الخطوة الثانيـة هى تأليف الروايات على نسق ما يفعله الغربيون ، وربما كان أول قصة مصرية مُنشأة هى قصـة (علم الدين) لعلى باشا مبارك ؛ ألفها فى أربعة أجزاء وهو ناظر للمعارف فحشد جمعاً كبيراً من المدرسين ووضع خطتها وهى أن يحصروا أهم مظاهر المدنية الحديثـة كالسكك الحديدية والبريد والملاحة والتياترو والبورصة والبنوك ووسائل الإضاءة إلى غير ذلك ، ثم يكتبوا فى هذه الموضوعات ما يجب أن يعلمه الإنسان المثقف كما جمع فيها ما وصل إليه العلم فى البحر وعجائبه ، والبراكين والذهب والأحجار ، والصناعة والفلاحة وأشهر النباتات وما يستخرج منها الخ .

وكذلك الشأن فى الموضوعات الأوربية كعادات الأوربيين فى مآكلهم وملبسهم ، وعادات المصريين فى ذلك .

ثم عادات أدبية كالميسر والأزلام والأنصاب عند العرب ، ومعنى المعلقات وتاريخ القهوة والحشيش .

فلما فرغوا من ذلك صبّها فى قالب قصة تدخل فيها هـذه الموضوعات ، وعاونه فى صياغتها عبد الله باشا فكرى .

وجعل بطل القصة شيخاً من الأزهر اسمه الشيخ علم الدين . وقد وصف فيها حياة الشيخ الأولى وكيف تعلّم فى الكتاب ، وتلقى العلم فى الأزهر ، وأخيرا حضر رجل انجليزى من المستشرقين إلى القاهرة فالتقى بالشيخ علم الدين ودرس العربية عليه ، ثم عرض الإنجليزى على أستاذه أن يسافر إلى بلاد الإنجليز ففعل بعـد تردد ، وسافر الشيخ إلى إنكلترا ، وكان كلما مرّ على شىء فى مصر سأله الإنجليزى عنه فيشرحه له ، ثم كلما مرّ الشيخ بعد ذلك على شىء فى انكلترا شرحه الإنجليزى للشيخ .

وقد ألفت القصة حوالى ١٨٧٩ وطبعت ١٨٨٢ .

وكانت ضعيفة الحبكة الروائيـة ، قلّل من الروابط فيهـا ما كدّسه من العلوم والمعارف ، وفاتته الدقة أحيانا فى وصف الشخصيات وتحليلها فهى على كل حال من أوائل القصص المصرية التى خطت الطريق للقصة من بعدها .

وكان قد ساد فى أوربا القصص التاريخى ، فقلد كتاب العرب هذا النمط القصصى ، وألف سليم البستانى طائفة منها مثل زنوبيا وبدور ، وجاء بعده جرجى زيدان فألف كثيراً منها مثل عذراء قريش ، وغادة كربلاء ، وفتاة غسان ، والعباسة أخت الرشيد ، والمملوك الشارد . وقد غلب عليها الناحية التاريخية ، وطغت فيها على الناحية الفنية .

وإلى جانب القصص التاريخى وُضعت قصص أخرى كانت تهدف إلى الحثّ على الفضيلة وتجنب الرذيلة كقصة سليم البستانى فى (الهيام فى جنان الشام) وقصة نقولا الحداد (الصديق المجهول) وأمثالها .

وبجانب ذلك كانت الروايات التمثيلية فكان لها نصيب فى إحياء فن القصص ، وبدءوا كذلك بتمثيل روايات أفرنجية بعد تعريبها ، كما فعل (مارون النقاش) من تمثيل رواية البخيل (موليير) .

وفى عهد الخديوى اسماعيل بُنيت دار الأوبرا الملكيـة (١٨٦٩) ومثّلت فيها للمرة الأولى فرقة فرنسية فـكان هذا لافتاً لأنظار بعض الأدباء أن يُعنَوْا بالتمثيل العربى على نمط التمثيل الأوربى . فجاء إلى مصر من لبنان سليم نقاش وأديب إسحق ومعهما فرقة لبنانية مثلت فى الإسكندرية (١٨٧٦) . وبعد ذلك مثل يوسف خياط فى الأوبرا رواية (المظلوم) واشتهر بعد ذلك أبو خليل أحمد القبانى الدمشقى الأصل . مثّل أول أمره فى سورية ، ثم انتقل إلى مصر .

وتتابع التمثيل بعد ذلك ، ولـكنه كان ضعيفاً ، فاتراً ، لا يعدو أن يكون خطوة تقدم بها القرقوز وخيال الظل وكان من أهم أسباب ضعفه أن الجمهور المسلم لم يكن إلى ذلك الوقت قد استساغ أن تظهر المرأة على المسرح حتى كان إلى عهد قريب يمثـل الفتى دور الفتاة . وإنما أخذ التمثيل يرقى بعض الشىء فى أوائل القرن العشرين .

(ى) حركة الترجمة والتأليف والنشر

كانت اللغة العربية إلى أوائل القرن التاسع عشر لا تعرف شيئاً مما يجرى فى أوربا من (العلوم) التى أنتجتها النهضة الأوربية كالطب والطبيعة والـكيمياء والرياضيات فلما

جاء محمد على باشا أسس نهضته أول الأمر على الجيش وإصلاحه وتنظيمه واحتاج الجيش إلى أطباء ، واحتاج الطب إلى طبيعة وكيمياء كما احتاج الجيش أيضاً إلى أبنية واحتاجت الأبنية إلى مهندسين ، واحتاج المهندسون إلى رياضة ، فنشأ عن ذلك كله الاهتمام بهذه العلوم الطبية والطبيعية والكيماوية والهندسية والرياضية ولم يكن من أهل البلاد أحد يعرفها ، فاضطر محمد على إلى استدعاء العدد الكثير من الأساتذة الأوربيين ، وخاصة الفرنسيين ، يعلمون أبناء البلاد ، وأبناء البلاد لا يعرفون شيئاً من اللغات الأجنبية ، ولم ينتظر محمد على حتى يعود المبعوثون من المصريين ، فاستعان ببعض من يعرف اللغة الفرنسية من السوريين والمغاربة وجعلهم واسطة بين الأساتذة الأوربيين والطلبة المصريين ، فكان الأساتذة يختارون الكتب الإفرنجية ، أو يؤلفونها ويعرضونها على لجنة لدراستها وإقرارها إن كانت صالحة ، فكانت كتب الطب مثلا تعرض على لجنة من أساتذة المدرسة الطبية تسمى « أرباب المشورة الطبية » فإذا أقرتها نقلت إلى العربية على يد المترجمين وهؤلاء المترجمون قد يكونون ضعفاء فى اللغة العربية فيعهدون إلى عالم أزهرى يتولى تصحيحها ، وقد يشركون فى التنقيح والتصحيح اثنين أحدهما عالم باللغة الأجنبية والآخر عالم باللغة العربية ليتعاونا فى تجويد الكتاب وإتقانه .

وانتقلت البلاد نقلة ثانية بتأسيس مدرسة الألسن ، وكان طلبتها يجيدون اللغتين فيترجمون ويتولى رفاعة بك تصحيح ما ترجموا ، وبذلك أخرج هؤلاء وهؤلاء كتبا قيمة كانت أساس النهضة فى العلوم الحديثة ، وأعادوا نفس الطريقة التى اتبعت فى العصر العباسى حين نقل العرب علوم اليونان وغيرهم إلى العربية . كما كان التاريخ يعيد نفسه من أن حركة الترجمة تبدأ أولا فى العلوم المجهولة ثم يتبعها التأليف ، فقد بدأ العائدون من البعثة والمتخرجون فى المدارس المصرية وفى مدرسة الألسن يؤلفون فى الطب وغيره من هذه العلوم . ومن الطريف فى ذلك أنهم كانوا يسمون الكتب العلمية على نمط ما سميت به فى العصور الوسطى فيسمون الكتاب مثلا « غرر النجاح فى أعمال الجراح » أو « أحسن الأغراض فى التشخيص ومعالجة الأمراض » أو « السراج الوهاج فى التشخيص والعلاج » أو « الآيات الباهرة فى النجوم الزاهرة » وهو فى الفلك لإسماعيل باشا الفلكى وهكذا .

وهذه العلوم وإن كانت لا تمت كثيرا إلى اللغة العربية وآدابها فهى تؤثر فى النهضة

الأدبية من ناحيتين : ناحية أن هذه العلوم ترقى الأذهان وتوسع الأفكار ، وقد علمتنا التجارب أن النهضة إذا حدثت فى جانب من جوانب العلوم أثرت سريعاً فى الجوانب الأخرى من العلوم والفنون . أضف إلى ذلك أن الأدب يعتمد فى إنتاجه على كل شىء ، والأديب يجب أن يختزن فى ذهنه كثيرا من شتى أنواع الحياة والعلوم ، ولا بد أن يأتى عليه يوم يخرجها من مخزنه ليصوغها فى فنه وأدبه . هذا إلى أن رقى العلوم ولو كانت طبية أو طبيعية ترقى العقل وتجعله أبعد عن التخريف والأدب مملوء بالتخريف إن كان منتجه خرافيا ومثقف عاقل إن كان منتجه مثقفاً عاقلا .

على أن الأدب نفسه خضع لهذا القانون فبدأ كثير من عارفى اللغات الأوربية يترجمون كثيراً من أحسن ما قرءوا فيها فترجم سليمان البستانى الياذة هوميروس إلى العربية شعراً فكان عملاً جليلاً وضع تحت أنظار العرب ذخيرة من الذخائر التى تعدُّ مصدر وحى لأدباء الفرنج وقدمها بمقدمة طويلة قيمة نظر فيها إلى الأدب العربى نظرة عميقة على ضوء الإلياذة.

وكما ترجموا فى هذا القرن أيضاً كثيراً من الروايات الإنجليزية والفرنسية والروايات من مثل روايات شكسبير وموليير ودوماس وشاتوبريان ولافونتين وراسين وكورنى . وحلّت هذه الروايات عند القراء المثقفين المركز الذى كان تحتله قصص عنترة والزير سالم وسيف بن ذى يزن وغيرها . وكانت ترجمتها أساساً لما ألف فى هذا اللون من الأدب بعد ذلك .

التأليف فى اللغة والأدب

شملت هذه النهضة التأليف فى اللغة والأدب وما يتصل بهما من تأليف فى وسائلهما من نحو وصرف وعروض و بلاغة . ففى مطلع هذا القرن التاسع عشر كتب الشيخ حسن العطار (المتوفى ١٨٣٤) مجموعة من إنشائه سميت (إنشاء العطار) وكتب الشيخ حسن قويدر الخليلى (المتوفى ١٨٤٥) كتابه (نيل الأرب فى نظم مثلثات العرب) ذكر فيه الألفاظ التى وردت بالحركات الثلاث مع شرح كل شكل من أشكالها وقد طبع الكتاب فى مصر وترجم إلى اللغة الإيطالية كما ألف رسالة (الأغلال والسلاسل فى مجنون اسمه عاقل) سخر فيها من تصرفات رجل سخيف اسمه عاقل انتحل قصيدة لغيره ونسبها لنفسه .

وفى سورية كان من أبرز المؤلفين الشيخ ناصيف اليازجي فقد كتب (مجمع البحرين) كما ألف كتباً خطا فيها خطوة جديدة فى تعليم النحو والصرف والعروض والقوافى والبيان فألف (فصل الخطاب فى النحو والصرف) و (نقطة الدائرة فى العروض) و (الجمان فى علم البيان) وألف أحمد فارس الشدياق (المتوفى ١٨٨٧) كثيراً من كتب اللغة كالجاسوس على القاموس نقد فيه قاموس الفيروز بادى و (سر الليال فى القلب والإبدال) كما ألف فى النحو والصرف (غنية الطالب).

واشتهر فى مصر من مؤلفى الكتب الأدبية الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى (المتوفى ١٨٨٨) وهو عالم أزهرى اتصل بالخديوى اسماعيل واختاره إماماً للمعية ومفتيا له، وشارك فى الشعر والأدب واللغة وامتاز بها وأكثر من التأليف فيها فألف كتاب (سعود المطالع) فى مجلدين جمع فيه كثيراً من العلوم والفنون وبناه على شرح لغز فى اسم الخديوى اسماعيل، وله (الفواكه) فى الأدب و (الدورق) فى اللغة، وله مكاتبات ورسائل دارت بينه وبين الشيخ إبراهيم الأحدب.

وكان الشيخ حسين المرصفى (المتوفى ١٨٨٩) من عيون المؤلفين، وهو عالم من علماء الأزهر، وكان كفيفاً، وتزعم الحركة الأدبية فى مصر، وكان من أبرز تلاميذه محمود سامى البارودى وتولى التدريس فى دار العلوم فكان له أكبر الفضل على الأوائل من خريجيها وقد اجتهد فى تعلم اللغة الفرنسية واستفاد منها وألف كتاباً قيما يعد خطوة جديدة فى التأليف فى علوم اللغة العربية وهو (الوسيلة الأدبيـة فى العلوم العربية)، عنى فيه عناية خاصة بعلم الأدب كما كان من أثر معرفته بالفرنسية أن وضع كتاباً سماه (الكلم الثمان) شرح فيه معنى الأمة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية.

وكان من أشهر المؤلفين فى اللغة والأدب الشيخ إبراهيم اليازجى، وقد عرضنا لترجمته وتآليفه فيما سبق ومن تآليفه الأدبيـة واللغوية شرحه لديوان المتنبى وكتابه نجعة الرائد ولغة الجرائد.

ووُجدت فى سورية حركة قيمة فى تأليف المعاجم على نمط قريب التناول اتبع فيـه أسلوب (المصباح المنير) من ترتيب الكلمات حسب أوائلها وإفراد كل معنى فى أول السطر،

وكان من أوائل من ألّف فى ذلك بطرس البستانى (المتوفى سنة ١٨٨٣) فى معجمه « محيط المحيط » فى جزئين كبيرين أدخل فيه بعض المصطلحات العلمية والألفاظ المولدة وبعض الألفاظ العامية مع التنبيه عليها ، وقام بعمل آخر أجلّ شأناً وهو دائرة المعارف ، مرتبة على حسب الحروف الأبجدية فى العلم والأدب والتاريخ والجغرافية وسائر العلوم على نمط دوائر المعارف الأجنبية ، وقد أتمّ فى حياته منها ستة مجلدات كبيرة ، وأتمّ السابع والثامن منها ابنه سليم ، وتولى أبناؤه الباقون التاسع والعاشر والحادى عشر بمساعدة ابن عمهم سليمان البستانى ووصلوا فيها إلى مادة (عثمانية) .

واشتهر من مؤلفى اللغة العربية رجل هندى هو صدّيق حسن خان (المتوفى ١٨٨٩) عاش فى الهند وتزوج ملكة بهوبال وجمع حوله كثيراً من العلماء واشتغل معهم فى تأليف كتب كثيرة فى الدين واللغة والأدب والبلاغة وغيرها ، ومن أشهرها البُلغة فى أصول اللغة ولقطة العجلان فى اللغة أيضاً ، وله موسوعة قيمة تسمى أبجد العلوم ، ذكر فيها كل علم عربى وقدّم له بمقدمة فى تاريخه ، ثم ذكر أسماء أشهر الكتب التى ألفت فيه والتعريف به .

ولسنا ننسى رجلا ممتازاً مستشرقاً عاش فى لبنان وكان له أثر فى النهضة العلمية والأدبية وهو « كرنيليوس فنديك » ؛ هولندى الأصل ، أمريكى النشأة ، تعلّم العلوم الطبية والرياضية فى أمريكا ، ثم رحل إلى بيروت سنة ١٨٤٠ وأخذ فى دراسة اللغة العربية حتى أتقنها ، وصحب بطرس البستانى ، وعُنى بالتأليف فأغنى المكتبة العربية التى تعدّ بحق خطوة فى التأليف على النمط الحديث فى موضوعاته المختلفة سواء كانت علمية أو أدبية وإن كان أكثرها علميا . وأشهر هذه التآليف النقش على الحجر فى تسعة أجزاء كل جزء فى علم من العلوم كالفلسفة الطبيعية والكيمياء والجغرافيا الطبيعية والفلك والجيولوجيا .. الخ ... وله كتاب لطيف اسمه « المرآة الوضية فى الكرة الأرضية » جمع فيه بين الجغرافية والتاريخ و « محاسن القبة الزرقاء » فى الفلك .

وعلى الجملة فقد ألفت فى اللغة والأدب كتب كثيرة فى القرن التاسع عشر تلوّنت بلون النهضة وتأثرت بالكتب الإفرنجية من حيث النظام والترتيب والتقريب إلى الأذهان

سواء فى ذلك لغتها وأسلوبها أو وضعها ، كما اتجهت العناية الكبرى فى كثير من هذه الكتب إلى طلبة المدارس وأمثالها فى تبسيط العلوم العربية كالنحو والصرف وعلوم البلاغة فاختير لها أقرب التعبيرات وأسهلها ، وتجنبت فيها الحواشى وما لا يبنى عليه عمل . وكان أكبر الفضل فى ذلك لرفاعة الطحطاوى ومدرسته ، وعلى مبارك ومدرسته فى مصر ، وناصيف اليازجى و بطرس البستانى ، وفانديك ومدارسهم فى لبنان .

التأليف فى التاريخ والجغرافية والرحلات

ويتصل بعلوم الأدب التاريخ والرحلات . وقد طلع القرن التاسع عشر وأهم مؤرخ فيه عبد الرحمن الجبرتى (المتوفى سنة ١٨٢٥) ، كان من علماء الأزهر ولكنه كان ممتازاً بميله إلى الفلك والاشتغال به على النمط المألوف فى العصور الوسطى ، كما امتاز بميله إلى التاريخ وقد وضع كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » أرّخ فيه القرن الثانى عشر والثالث عشر للهجرة ، ذاكراً أهم الأحداث اليومية التى عاصرها وشاهدها أو سمع بها ، وترجم فيه لعلماء زمانه وأعيانه . ويعدّ الكتاب من أهم المصادر التى تؤرخ الحملة الفرنسية على مصر وأوائل حكم محمد على باشا . والمؤلف وإن كان ممتازاً فى تحرّيه للحقائق و بذله الجهد العظيم فى الوقوف على دقائقها ودقة وصفها وصدقها والتنبه إلى الحديث عن كل ما يتصل بالشعب وعدم الاقتصار على حوادث الحروب وما يجرى فى القصور .. إلا أنه يؤخذ عليه السذاجة فى طريقة التأليف وعدم النظرة الشاملة والتعمق فى الأسباب والنتائج كما هى ميزة التأليف الحديث فى التاريخ ، كما يؤخذ عليه ضعف أسلوبه الأدبى وتأثره بأساليب عصره التى هى أقرب إلى العامية .

وقد أثر بعد ذلك فى التأليف التاريخى الاطلاع على كتب المؤرخين من الإفرنج وترجمة بعضها . فقد ترجم رفاعة الطحطاوى مثلا كتاب « قلائد المفاخر فى غرايب عوائد الأوائل والأواخر » ، وترجم غيره كتاب « أسباب قيام دولة الرومان وانحطاطها » فى فلسفة التاريخ ، وكتاب « روح الشرائع » لمونتسكيو ، وكتاب « تاريخ شارلمان » و « تاريخ شارلكان » وتاريخ « فرنسا العام » إلى غير ذلك ، فهذه الكتب أطلعت كتاب العرب على لون جديد

من ألوان الكتابة والتأليف وجعلتهم يؤلفون على نمط متأثر بالنمط العربي والغربي معاً ؛ فألف مثلا سليم النقاش البيروتي (المتوفى ١٨٨٤) كتاب « مصر المصريين » في تسعة أجزاء أرّخ فيه حوادث الثورة العرابية وقسمه إلى ثلاثة أقسام : قسم في تاريخ الأسرة الخديوية إلى خروج الخديوي اسماعيل من مصر ، وقسم في ولاية الخديوي توفيق إلى انقضاء الحوادث العرابية ونتائجها ، والقسم الأخير في وصف محاكمات العرابيين وصور محاضرها الرسمية .

كما ألّف محمد بيرم التونسي (المتوفى ١٨٨٩) كتابه « صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار » . والمؤلف تونسي الأصل ، سافر إلى أوربا مراراً وفارق تونس على أثر احتلال فرنسا لها ، وضمّن كتابه وصف رحلاته في أوربا ومصر والشام والحجاز وغيرها ، والحياة الاجتماعية في هذه البلاد وصفاً قيّماً .

ومن أهم الكتب الجغرافية التاريخية الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك (المتوفى ١٨٩٣) وصف فيها مصر و بلادها وخططها ومدارسها وشوارعها وجوامعها وقُراها في عشرين جزءاً وكان إذا ذكر بلداً ترجم لأشهر علمائه . وقد خصص الجزء الثامن عشر للنيل ومقاييسه وارتفاعاته من قديم الزمان إلى أيامه ، والجزء التاسع عشر للترع والخلجان ، والجزء العشرين للنقود الإسلامية وتاريخها ؛ وقد جمع فيه في كثير من المواضع ماذكره مؤرخو العرب مثل المقريزي ، ومؤرخو الفرنج مثل كاترمير .

وأخيراً جاء جورجي زيدان فنحا بالتاريخ نحواً جديداً اتبع فيه أسلوب الفرنج في جمع النصوص وبحثها والاستنتاج منها ودراسة الأسباب والنتائج .

وبجانب هذا كان هناك مؤرّخون يجرون على النمط القديم في التأريخ أمثال أحمد بن زيني دحلان المكّي (المتوفى ١٨٨٦) فقد ألف كتباً كثيرة في التاريخ على النمط القديم مع تبسيطها وتقريبها إلى الأذهان ، ألّفها كلها في مكة ، وأظهرها « الفتوحات الإسلامية » و « تاريخ الدول الإسلامية » وضعه في جداول ، تدل على الروح الحديثة التي سرت في التأليف ، وكتاب « خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام » وكتاب « الفتح المبين في فضائل الخلفاء الراشدين » .

وكذلك فعل السلاوي المراكشي (المتوفى سنة ١٨٩٧) في كتاب قيّم سماه (الاستقصا

فى أخبار المغرب الأقصى) استند فيه على ما كتبه المؤرخون الأندلسيون وغيرهم فى تاريخ المغرب فجاء أحسن مجموعة فى بابها .

وكما عُنوا بالتاريخ عنوا كذلك بالرحلات ، وتابعوا فى ذلك ما كان لأسلافهم من مثل ابن جبير وابن بطوطة ، من ذلك رحلة شهاب الدين الألوسى (المتوفى ١٨٥٤) وصف فيها رحلته إلى الآستانة وسماها (رحلة الشمول فى الذهاب إلى استانبول) ، ورحلة إبراهيم النجار اللبنانى (المتوفى ١٨٦٣) التى وصف فيها سفره إلى أوربا والآستانة وسماها (المصباح الساري) . ورحلة رفاعة الطهطاوى (المتوفى ١٨٧٣) التى وصف فيها رحلته إلى فرنسا وسماها (خلاصة الإبريز والديوان النفيس) . ورحلات أحمد فارس الشدياق ، وقد رحل إلى مالطة فألف كتاب (الواسطة إلى أخبار مالطة) ورحل إلى أوربا فألف كتابه (كشف المخبا عن فنون أوربا) . ورحلة عبد الله باشا فكرى (المتوفى ١٨٨٩) التى وصف فيها ماشاهده فى رحلته إلى أوربا وسماها (إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا) وكانت الحكومة المصرية انتدبته سنة ١٨٨٨ لرآسة الوفد المصرى لمؤتمر المستشرقين فى استوكهلم وقد بدأ فى إعدادها بعد رحلته ولكنه لم يتمها ، فأتمها ابنه أمين باشا فكرى وكان قد رحل معه ونشرها سنة ١٨٩٢ .

و إلى جانب الترجمة والتأليف نشطت حركة نشر الكتب العربية القديمة وطبعها ، وتأسست جمعيات علمية للقيام على اختيار الكتب الصالحة ونشرها ، فقد أسست مثلا جمعية المعارف بمصر ويرأسها محمد عارف باشا وأنشأت مطبعة لنشر كتبها وجعلتها شركة مساهمة ، ونشرت من الكتب أسد الغابة لابن الأثير ، وألف باء ، وتاج العروس وغير ذلك من الكتب القيمة . وتأسست شركة طبع الكتب العربية سنة ١٨٩٨ فى مصر أيضاً وكان من أعضائها أحمد تيمور باشا وحسن باشا عاصم وعلى بك بهجت ، وقد نشرت كتاب الوجيز فى فقه الإمام الشافعى وسيرة السلطان صلاح الدين وفتوح البلدان للبلاذرى والإحاطة فى أخبار غرناطة إلى غير ذلك . وفى الآستانة أسس أحمد فارس الشدياق مطبعة الجوائب وقام بنشر كثير من الكتب الأدبية القيمة مثل الموازنة بين أبى تمام والبحترى ونسيم الصبا للحلبى وديوان البحترى وغيرها كما قام كثير من الأفراد بطبع الكتب القديمة فى مطبعة

بولاق وغيرها من المطابع ، ومثل ما حدث فى مصر حدث فى غيرها من الأقطار العربية فنشرت الكتب الكثيرة فى بيروت وحلب ودمشق والآستانة ومكة وإيران والهند وغيرها من عواصم وأقطار البلدان العربية والإسلامية .

ثم نظمت المكتبات العمومية فى مصر وسُهِّلت وجوه الانتفاع بها فأسست المكتبة الخديوية سنة ١٨٧٠ ، وجمع فيها ما كان مفرّقاً فى المساجد معرّضاً للتلف والضياع . وأعدّ عند إنشائها مكان لإلقاء المحاضرات ، ومكان للمراجعة فى أوقات معينة . كما أسست المكتبة الأزهرية ونظمت سنة ١٨٧٩ ، وأسست مكتبة البلدية فى الإسكندرية سنة ١٨٩٢ إلى غير ذلك من المكاتب العامة . وحدث فى الأقطار العربية الأخرى ما حدث فى مصر فنظمت المكتبة الظاهرية فى دمشق ، وكان أشار بتكوينها مدحت باشا على أثر مجيئه الشام واليا عليها ١٨٧٨ كما أنشئت ونظمت مكاتب كثيرة فى حلب وبيروت والعراق .

* * *

كلّ هذا النتاج من شعر ونثر وقصص ، وكلّ هذه الحركات من ترجمة وتأليف ونشر ذابت فى العالم العربى فعملت فى ترقية عقله ، وإرهاف ذوقه ونقلته نقلة كبيرة يشعر الباحث بعظمها إذا قارن بين حالة الأمة العربية فى أوائل القرن التاسع عشر وحالتها فى أواخره : فالبصيص الضئيل من النور الذى كان فى أوله صار شعلة كبيرة متوهجة فى آخره . وكان هذا القرن قرناً مباركا عظيم الفائدة بسبب عوامل النهضة التى شرحناها . فالقرن التاسع عشر إذا قيس بالخمسة القرون أو الستة السابقة عليها كان أعظم منها فائدة وأكبر نفعاً فقد قطع فى التقدم شوطاً وكان له من أثر الثورة الفكرية والذوقية ما لم يكن لتلك القرون قبله . ومع هذا فإن البذور التى بُذرتْ فيه نمتْ وتحولتْ إلى شجيرات صغيرة ولم يظهر نموّها الكبير ولم تؤت من الثمار الناضجة إلاّ فى القرن العشرين وهذا ما سنؤرخه بعد إن شاء الله .